في هذا العدد

في تحطيم الخرافات ..... رئيس التحرير ٤

مسار العصر

سيناريوهات يوم القيامة ..... سعد سلوم ٦

مسار الأديان

الصابئة المندائيون في العراق
باسم الحي العظيم ..... ماجد الزهيري ٣٠
الديانة المندائية وانبيائها المقدسين ..... يوحنا النشمي ٤٢
معرفة الله في التصور المندائي ..... سالم غصاب كفل ٤٩
الكاتب عزيز سباهي
مابين الماركسية والدين المندائي ... حاوره موسى الخميسي ٥٢

مسار الشعر

الحائر بوعائه ..... فارس حرام ٥٨

مسار القص

مع القاص جاسم عاصي حاوره صفاء ذياب ٦٢
ما روته الذاكرة ..... جاسم عاصي ٧٠

مسار السينما

ضربات مايكل مور السينمائية فراس الشاروط ٨٩
مرايا شاعر السينما تاركوفسكي احمد ثامر جهاد ٩٥
التكعيبية في السينما ..... عباس المفرجي ٩٩

مسار الميديا

دراسة في التأثيرات النفسية لوسائل الاعلام
ستيوارت فسكوف ..... ترجمة علاء هاشم ١٠٤
صور حروب أمريكا اج .
بروس فرانكلين ..... ترجمة : أمير دوشي ١١٤

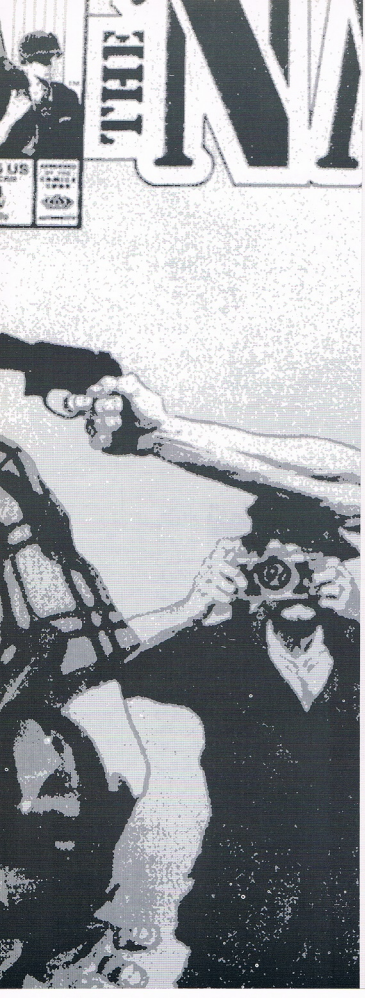

2 العدد

السنة الثالثة

■ مسار التشكيل

فنان العدد

شداد عبد القهار

حداثة السطح ---------- فاخر محمد ٧٨

ثنائية من الحب و الحرب ---------- صلاح عباس ٨١

لوحاته ايقونة واسعة ---------- محمد الهجول ٨٤

مع الفنان شداد عبد القهار ---- حاوره خضير الزيدي ٨٦

■ كتاب العدد

نظريات الدين البدائي

تأليف: إي. ايفانز بريتشارد126

دعونا نكون واقعيين....
دعونا نفعل المستحيل
غيفارا

في تحطيم الخرافات

رئيس التحرير

يواصلُ هذا العدد اهتمامنا بمكونات البيت العراقي الذي استأنفناه بملف الايزدية العدد الثاني/السنة الاولى. في وقـــت يتعرض فيه هذا المكون العريق لاعتداءات متكررة تستهدف تصفية رأس مالنا الحضاري واعلان افلاس الغنى الاقوامي والديني العراقي، لذا جاء عددنا الجديد انسياقـــا مع مشـــــروع المجلة واهتمامها، بتخصيص ملف عن الصابئة المندائيين في العراق على ان تتبعه ملفات مقبلة عن بقية هذه المكونات كما وعدنا القارئ في افتتاحية عدد السنة الثالثة من مسارات.

كانت اول ضربة تلقاها عقـد التعايش الاجتماعي على يد السلطة الحاكمة المنفصلة عن مكونات الشعب، عبر سياسة القمع وإهمال هذه المكونات من قبل الحكومات المتعاقبة، ما تسبب في هروب (رأس المال الحضاري) العراقي والاخير -كما نؤمن ونعتقد- يمثل الاحتياطي الحضاري الضروري لبناء وبقاء الأمة، لا سـيما مع تميزه بالتنوع الاجتماعي الغني.

وقد كانت عمليات التهجير القسري والقمع والتشـريد والهجرة الطوعية من الأسبـــــاب التي ضعفت من الإحساس بالانتماء للأرض (جسد الهوية) بعد ان تحول المكان الى حيز متحجر ميت واستحـــال الزمن الى بُعد متجمد مميت، وأصبحت "الهوية" محددة بعناصر انتقائية معينة، وأمتيازا مقررا من قبل هندسة اجتماعية فوقـية تتحكم بـها نخبـة معينة، هكذا جاء التهجير القســري للأكراد (الفيلية) الذين كانوا يقـيمون على الحـــدود العراقـية الإيرانية والهجرة المسيحـية الجماعية إلى الغرب في نهاية السبـعينيات والثمانينيات وبـــداية التسـعينيات من القـرن الماضي، فضلا عن الموجة الاخيرة بعد اسـتهداف كنائسـهم من قبـل الجماعات الاسلامية المتطرفة، إضافة إلى ترحيل وإبعاد عشرات الآلاف من العراقيين من أصول غير عربية قـد تركت آثاراً عميقة ليس فقط على تشـكيلة المجتمع العراقـي ولكن أيضا على الإحساس بـالهوية الوطنية والانتماء للمكان والمجال والافق.

بدأ هذا المشروع التفتيتي منذ منتصف القرن الماضي بالهجرة الواسعة والمنظمة ليهود العراق التي انفردت بكونها قد تمت بتواطؤ ومباركة الحكومات الرسـمية والإقليمية والدولية وقد بقي يهود العراق، شأنهم شأن

بقية العراقيين في الخارج، مرتبطين روحيا بالمكان الرافدينيي أعمق من علاقتهم بالأرض الموعودة التي هجروا إليها قسرا .كيف حدث ان عملت الانظمة السياسية المتعاقبة على تفكيك عقد التعايش الاجتماعي بين العراقيين بمختلف اطيافهم، وعملت على تذويب الاحساس بالهوية المشتركة؟

كيف بدأت تعمل ميكانزيمات الثنائيات التفتيتية في اطار التمييز العرقي والديني وانتهت بالتمييز داخل الدين والعرق والطائفة :عربي – يهودي، عربي – كردي، مسلم – مسيحي، سني – شيعي، سني–سني ، شيعي–شيعي....

اسئلة تحتاج الى اجابة صريحة، والى مواجهة مع التأريخ، اذ ان الخطوة اللازمة في مسيرة استعادة رأس المال الحضاري الهارب، هي تحديد مسؤولية الجناة ومواجهة الذات والاعتراف بالاخطاء، لكن كيف سنواجه التأريخ؟

***

بدأنا نعي اليوم أكثر من اي زمن مضى، انه من دون سياسة متعددة الثقافات، تصبح المشكلات المتخيلة للتنوع، نبوءات تتحول الى وقائع واحلام ليلية تتفجر الى كوابيس نهارية ونتائج سطحية تتنفخ الى سيناريوهات قيامية، ترتفع الخرافات الى مرتبة الحقائق وتتغلق كتابوات ينبغي تحطيمها للعبور الى الجانب الاخر.

الدراسات الحديثة تذكر خرافات من هذا القبيل تم تحطيمها نظريا على الاقل. خمس خرافات عن التنوع الثقافي ينبغي التنبيه من الانسياق وراءها والتعلق بأذيالها:-

الخرافة الاولى: يذهب الى ان هويات الناس تتنافس مع ولائهم للدولة، اذاً، هناك صفقة مقايضة بين الاعتراف بالتنوع وتوحيد الدولة.

الخرافة الثانية: تدافع عن جنوح المجموعات العرقية الى خوض نزاعات عرقية في ما بينها، نتيجة تضارب القيم، إذا، هناك صفقة مقايضة بين احترام التنوع والمحافظة على السلام.

الخرافة الثالثة : تقتضي الحرية الثقافية الدفاع عن الاعراف التقاليدية كي يمكن اجراء مقايضات بين الاعتراف بالتعددية الثقافية وسواها من اولويات التنمية البشرية.

الخرافة الرابعة: ترى ان البلدان المتنوعة عرقيا اقل قدرة على النمو، ولذا، هناك صفقة مقايضة بين احترام التنوع وتشجيع التنمية.

الخرافة الخامسة: تنطلق من جبرية ثقافية بقولها ان من المرجح ان تحقق بعض الثقافات تقدما اعظم من غيرها في مجال التنمية، وان لدى بعض الثقافات قيما ديموقراطية متأصلة في حين تفتقدها ثقافات اخرى، اذا فهناك صفقة مقايضة بين الاتساع لثقافات معينة وبين دفع عجلة التنمية والديمقراطية.

تحطيم هذه الاصنام الثقافية ضرورة لفتح المجال امام تفتح الحرية الثقافية للمجموعات السكانية، مع الدفاع عن جوهر الحرية الثقافية والذي هو اعطاء الناس حرية اختيار هوياتهم.

***

كما جاء في الكتاب المقدس "حيث لاتوجد رؤيا يهلك الناس" الامثال ١٨:٢٩. فإن مسارات تلتزم بسرويتها التنويرية في زمن الهلاك والتي دفعتها كمشروع ومطبوع في الدفاع عن جوهر الحرية الثقافية والالتزام بالثقافة كفعل تغيير وتحرير، وكما دأبت في سنواتها السابقة تواصل عنايتها بالرمز الثقافي العراقي اذ يحاور هذا العدد القاص جاسم عاصي ويقدم ملفا عن الفنان التشكيلي شداد عبد القهار، كما ينفرد بتخصيص مساحة متميزة للسينما من خلال تقديم ثلاثة موضوعات متنوعة، ويقدم سارا عن (الميديا) تعبيرا عن الاحساس باهمية دور وسائل الاعلام في صياغة الواقع البشري (تسكينه أو تفجيره) وصورة الانسان عن ذاته، وذلك بتقديمنا دراسة في التأثيرات النفسية لوسائل الاعلام ودراسة عن صور حروب اميركا من الواقعية الى الواقع الافتراضي والاخير كما هو معروف: تصوير حاسوبي للواقع يعطي المشاهد انطباعا بأنه في واقع فعلي يمكنه التعامل معه. وانسياقا مع المسار الرئيس للعدد حول الاديان، انطوى كتاب العدد على دراسة متميزة حول نظريات الاديان البدائية.

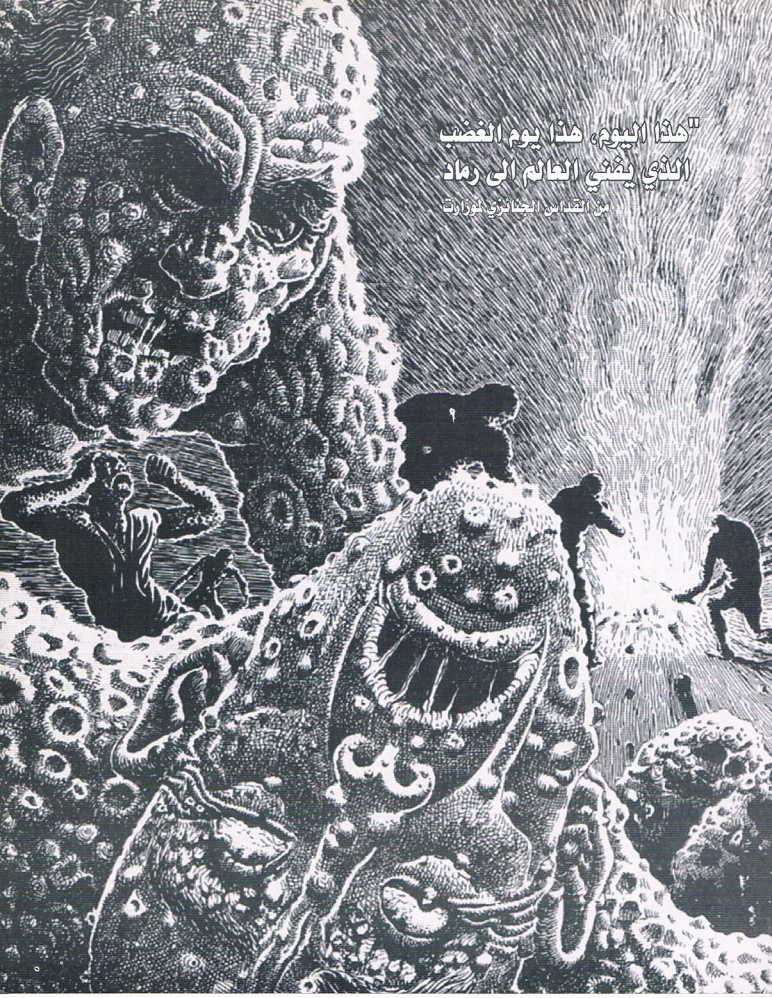
"هذا اليوم، هذا يوم الغضب
الذي يفني العالم الى رماد"
من القداس الجنائزي لموزارت

كوكب الارض يسبح في الفضاء نحو النهاية، تصبح الحياة البشرية اشبه بالعيش على سطح سفينة تايتانيك المشرفة على الغرق، المسافرون يعيشون ضمن دوائر العادات، مستسلمين لراحة شرنقة الرضا الذاتي، عاجزين عن فهم حجم الكارثة التي ستحيق بهم، غافلين عن اسباب الدمار التي تسرع من انحدار كوكبهم وكيفية تأثير ذلك على حياتهم.

الحضارة ترقص على حافة كارثة، مزهوة بنشوة مراقبة التكنولوجيا تغتصب الطبيعة، عند الساحل لاتنتظر "سفينة نوح" لحفظ التنوع الاحيائي، فليس هناك غرفة مختبر صغيرة اسفل مقصورة القيادة تحتوي رفوفها على قوارير لحفظ الـ "DNA" لكافة الانواع الحية. الربان المنقذ "نوح" شاخ مبكرا ولن يبقى حيا بعد الطوفان هذه المرة .يضحك عرافو يوم الدينونة حول الهيكل العظمي غير المكتمل لسفينته الخلاصية ويصفقون لاطفال يلعبون على الرمل حيث نبؤة ميشيل فوكو تتحقق حرفيا " سوف تمحى صورة الانسان مثل وجه مرسوم على شاطئ البحر"

ينفتح زمن رعب لانهائي يغزو العقول والقلوب ويشبك المخيلة بسيناريوهات محتملة ليوم القيامة. يلتوي بعد هذا الزمن على نفسه فيسوده (الكاوس:chaos الفوضى) ويتلبسه منطق من يقاتلون بموتهم. يرتسم اللامتوقع في الافق اذ يحقن الفجائي ضمن نسيج اليومي الرتيب، فأمكانية تدمير العالم بحصول نفر من الارهابيين على السلاح النووي وتفجيره يدخل حيز المتوقع ويشكل الحدث الحاسم في معركة النهايات القصوى.

لاينقص هول المشهد سوى تدخل بشري طفيف، حركة عمدية او غير مقصودة من صانع قرار أو فعل ارهابي مختل، تتضافر مع حدث عرضي لتزج بنا في الجحيم، فلنتخيل السيناريو الذي يعقب حصول خطأ ما في ترسانة نووية وسلسلة الاحداث التي تتبع هذا الحدث الحاسم وتتراكم مثل تفاعل متسلسل.

في الوقت الذي يتنافس فيه أصوليو الشرق والغرب بأسلحتهم غير التقليدية في تسريع مجيء ملائكة الموت، مصادر لاتنتهي من رؤى النهايات : الادب والروايات الشعبية والسينما التجارية والمعلقون الاتيقون على شاشات الفضائيات والخطباء السياسيون في الاعياد الوطنية والخطباء الدينيون من على المنابر.

هذا كين فوليت يكتب رواية بعنوان "مطرقة عدن" تدور حبكتها حول مجموعة من الارهابيين تهدد بتسوية مدينة سان فرانسيسكو بالارض بزلازل من صنعهم(١) يخرج بعدها وزير الدفاع الاميركي السابق "وليام كوهين" ليعبر عن عمق هذه المخاوف بقوله: علينا تكثيف التدابير الوقائية ضد الاسلحة غير التقليدية في الوقت الذي يقوم فيه بعض المقتدرين من الارهابيين بتطوير أسلحة كيمياوية وبيولوجية ونظم إلكترو مغناطيسية يمكنها أن تحدث تقوبا في طبقة الاوزون أو ان تتسبب في حدوث زلازل أرضية أو براكين(٢) .

تخيلوا ما سيحدث بالسكان على امتداد الارض لو استخدمت تقنيات التحكم التكنولوجي بالبيئة على نطاق واسع، في حرب شاملة، خاصة وان عدد سكان العالم في ارتفاع مستمر، يزيد اليوم على ٦ مليارات نسمة والمدن في توسع مستمر، تكتظ بالسكان وتحتشد بالبنايات الضخمة وناطحات السحاب والجسور المعلاقة والشوارع المتشابكة في مناطق الصدع غير الحصينة، تزيد من مخاطر الزلازل الطبيعة فضلا عن امكانية استخدام سلاح الزلازل المصنعة في تدمير العالم.

هل نستطيع ان نسحب انفاسنا قليلا ونمزق شريط هذه السيناريوهات المحتملة ونحجم حركة المخيلة؟

نتوقف ونغرس مسمار السؤال في خشبة الالفية الجديدة وهي تتأرجح على مياه قلقة لعلنا نبتعد عن الارتطام بالحافة : هل النزعة الفاوستية لترويض الطبيعة والسيطرة عليها، والتي فصلت الانسان عن

الانواع البيولوجية الاخرى تدفعه الى ان يصبح ثقيلا اسودا وتجعل منه اشد المخلوقات تسونامية على وجه الارض؟ رصد نشاط الانسان اليومي يثبت يوما بعد اخر انه وحش تسونامي كاسر او على حد وصف شينجلر"حيوان مفترس"، وان بالامكان معالجة الكثير من النكبات والكوارث اذا ما حاول لجم هذا الوحش الكاسر في صدره، فأكثر من ثلث سكان العالم مشردون في حروب ونزاعات، بعد عامين من الالفية الجديدة مثلا كان يتقاتل ثلاثون بلدا حول العالم في ٣٧ نزاعا- اشترك فيها ما مجموعه ٢,٩٢ مليار فرد(٣) تسونامي الجوع يقتل ١٢٠٠ طفل كل ساعة، وتسونامي الفقر يطمر خمس البشرية بمعيشة على أقل من دولار في اليوم في الوقت الذي ينفق فيه بعض الناس في الطرف الاخر من العالم دولارين في اليوم على فنجان من الكابوتشينو، بل ان الاتحاد الاوربي يصرف على كل بقرة في الاتحاد الاوربي دولارين ونصف يوميا، وهذا مبلغ يفوق ما يعيش عليه ٧٥% من الافريقيين، بذلك تصبح الابقار الاوربية أكثر حظا من معظم البشر فالاتحاد الاوربي ينفق من المال لحماية المزارع ما يكفي لان تقوم كل بقرة أوربية برحلة حول العالم كل سنة ومع مبلغ ٤٠٠ جنيه استرليني كمصرف جيب على طول الرحلة. تفوقها في ذلك الابقار اليابانية، اذ تتلقى كل واحدة منها ما قيمته سبعة ونصف دولار يوميا (٤) تسونامي المخدرات الممنوعة تساوي نحو ٤٠٠ مليار دولار وهو رقم مساو تقريبا لقيمة الصناعات الصيدلية (الدوائية) العالمية، يجري غسلها او استخدامها لتمويل الصراعات المسلحة التي تفتك بالبشرية ولتمويل المزيد من الانشطة غير المشروعة(٥) تسونامي الجريمة العابرة للحدود يقدر معدل تدوير أمواله بمبلغ تريليون دولار بأرباح تقدر بمبلغ ٥٠٠ بليون دولار وشيئا فشيئا يحول هذا التسونامي المرعب عملياته الى أنشطة أجرامية أكثر تطورا تشمل تكنولوجيا المعلومات والقطاع المالي فضلا عن الاتجار بالبشر حيث تتراوح تقديرات عدد ضحاياه ما بين ٧٠٠٠٠٠ والمليونين في السنة معظمهم من النساء والاطفال والفقراء فقرا شديدا . بالوقت نفسه الذي يصنع فيه الانسان انواعا عديدة من التسونامايات تتضافر انواع اخرى(طبيعية) لتعميق مشهد الخراب الماثل فتسونامي الايدز قتل اكثر من ٢٢ مليون شخص ثلاثة ملايين منهم عام ٢٠٠٠ وحده وفي الوقت الحالي يوجد أكثر من ٣٦ مليون شخص مصاب بالايدز ، وهذا الوباء الاكبر الذي واجه البشر ، يصاب به شخص فتي كل ١٤ ثانية و يقدر عدد ضحاياه بأكثر من ٢٨٠ مليون ضحية(٦) و هناك بوادر توحي بأن تسونامي انفلونزا الطيور يتطور على نحو سيصيب ٤٠%من سكان العالم وعلى قتل اعداد تفوق التصور(معظمهم من الدول الفقيرة) وهو يعيد الذكرى السيئة و المخاوف التي رافقت الاصابة بالانفلونزا الاسبانية التي قتلت ٥٠ مليون شخصا بين عامي ١٩١٨-١٩١٩ (٧)

ما الذي سيحدث اذا بدأ هذا الوباء القاتل بالانتشار هذه اللحظة؟

سيناريو الكابوس

يدخن احد رؤوساء دول العالم الثالث سيكارا كوبيا في مكتبه غافلا عن حدث مفاجئ سيغير العالم بين ليلة وضحاها، اذ يصل الخبر ليلا بانتشار وباء الانفلونزا مع معدل وفيات مرتفع. يجفل السيد الرئيس وهو يوقع قرارا سريعا ينص على أغلاق الحدود الدولية وبعض الحدود الداخلية من دون اي اعلان مسبق حول كيفية اوتوقيت اعادة فتح هذه الحدود. كما يصدر امرا لتأمين الحدود من قبل القوات المسلحة لحماية وصول امدادات الامصال اللازمة للعلاج خوفا من طمع الدول المجاورة التي قد تريد الاستيلاء على شحنات الامصال او خطفها من مخازن الدولة القومي، هذا بعد ان يقايض هذه الامصال بأثمان باهضة. يجتمع قادة الجيش حول مائدة الرئيس لتنمية استراتيجيات للدفاع عن البلاد من الطامعين وكذلك لتأمين البلاد ضد التمرد الداخلي او الانقلابات او عمليات السلب والنهب . سيدخل التاريخ في لحظة حرجة تترك آثارها على الاستقرار الاجتماعي والامن القومي لكافة البلدان، الاخبار المنقولة عبر الفضائيات لن تسر المواطنين وهم يشهدون عجلات الاقتصاد العالمي تتوقف عن العمل، وتبدأ عملية عاجلة لتحديد السلع التي يحتاجها السكان خلال ١٢- ٣٦ شهرا لكي يبقوا على قيد الحياة. قوة العمل تتراجع في حين يشتد الطلب عليها، تتوقف التجارة الخارجية والسفر في محاولة فاشلة لمنع المرض من الانتشار الى بلدان جديدة، وفي خلال عام

يمكن ان يصاب اكثر من نصف السكان بالوباء. وسوف تكون هناك شحة في نطاق السلع بما في ذلك الطعام والصابون والورق والمصابيح الكهربائية والبنزين وقطع غيار المعدات العسكرية ومضخات المياه وفي الادوية بما فيها الامصال غير الخاصة بالوباء وسوف تغلق الصناعات الاخرى كصناعات الالبسة والالكترونيات والسيارات ويصبح من المستحيل ممارسة الانشطة الاعتيادية كالذهاب للمدارس ومشاهدة الافلام في دور السينما او تناول الطعام في المطاعم. بل يصدر حظر عام على ممارسة اية انشطة من هذا القبيل.

الانتاج العالمي من مصل الوباء سيكون محدودا، اضف الى ذلك ان عدد قليلا من الدول لديها امكانيات تصنيع هذا المصل، ومعنى هذا ان اقل من ٥٠٠ مليون نسمة – نحو ١٤% من سكان العالم يمكن ان يتم تطعيمهم خلال سنة من الوباء، وهنا يصبح سعر الامصال خياليا، وتوقع الدول الفطيئة اتفاقيات لمقايضة احتياطياتها من الذهب الاسود مقابل تأمين شحنة من الامصال لاتكفي سوى لنخب محدود من السكان. في حين تهدد دول اخرى باستعمال الاسلحة النووية اذا لم تحصل على نسبة عادلة منها. يخطب احد ممثلي الحكومات في الجمعية العامة للامم المتحدة مطالبا بتفعيل مواد الميثاق الخاصة بالمساواة بين الدول قبل ان يضع رأسه ميتا في حضن الامين العام الذي حصل بفعل منصبه السامي على مصل وقاية من المرض. الحرب العالمية ضد الوباء القاتل قد تكشف مفارقات تجعل احداث ١١ من ايلول حدثا تافها بمنظور التحولات التاريخية الفاجعة.

احتفاء بصري بيوم الدينونة

ليس هذا السيناريو فحسب يثير الرعب عبر ارجاء المعمورة فقد بدأ الناس في طول العالم وعرضه يدركون ان الضرر اللاحق بالبيئة والناجم عن نشاط البشر مدمر ولايمكن اصلاحه (يمكن وصفه بالنكبة) و"المشكلة البيئية" باتت شيئا فشيئا تقترب الى نقطة اللاعودة او النهاية الوشيكة، وهي تطلق اليوم على ظواهر باتت بارزة للعيان مثل ارتفاع سخونة الكوكب و إزالة الغابات وانقراض انواع حيوانية معينة وتلوث الهواء وتلوث التربة والتصحر وتدمير طبقة الاوزون وتلويث المياه بالكيمياويات واستنزاف الموارد والتلاعب بالجينات...الخ

الكوارث البيئية أخذت تحيق بنا وتسيطر على خيالنا، وتفسر شغف هوليوود بأفلام الخيال السينمائي التي تتعلق بتهديدات كونية لكوكبنا الارضي، الى حد وصل فيه عدد الافلام المنتجة في القرن الماضي وبداية هذا القرن رقما يتجاوز الالف فيلم، يدور نصفها على الاقل حول غزو كائنات فضائية وتهديدها بني البشر بالفناء مثل أي تي ، حروب الكواكب، يوم الاستقلال، كوكب القردة، طريق المجرة، حرب العوالم، أوديسا الفضاء.. الخ.

وهناك طائفة من الافلام التي تصور ازالة الحياة و نهاية العالم نتيجة حدث كوني كأصطدام نيزك عملاق أو كويكب بالارض وهو ما عرضه فيلما "هرمجدون" و "الاصطدام العميق" وليست مثل هذه الافلام مجرد احتفاء بصري بأقتراب يوم الدينونة اذ ان هناك كثيرا من الهلع الذي يسببه أنبياء يوم الدينونة داخل الوسط العلمي المهتم بمصير البشرية ففي عام ١٩٨٠ اقترح الجيولوجي "والتر الفاريز" ووالده عالم الطبيعيات " لويس الفاريز"، ان انقراض الديناصورات سببه كويكب كان قد ضرب الارض. الغيوم المؤلفة من الغبار والدخان قد اظلمت الغلاف الجوي لسنوات، متسببة بتجمد الحيوانات والنباتات. هذه الصورة للموت القادم من السماء، والانفجار الايحائي، والانقراض الذي شمل العالم لاقى صدى مع الخوف من الحرب النووية التي تقبع في اذهان كل انسان في وقت انتعشت فيه بلاغة الحرب الباردة(٨)اما افلام الكوارث فقد جاءت تعبيرا عن مخاوف حقيقية من مصائب بيئية تحل على الارض ومنها الجفاف والجوع والفيضانات والاوبئة والامراض بثها مبشرو الكوارث وعرافو المصائب ففي كتابه "مناخات الجوع" ١٩٧٧ وصف بريستون كيف ان بعض المجتمعات البدائية كانت قد جرى تدميرها بموجات جفاف مفاجئة، اسوأ بكثير من أي شيء عُرف في القرون الحديثة، وحذر من أن مثل هذه الكارثة يمكن ان تضرب حضارتنا(٩) ويتذكر الناس ان هناك الكثير من الدلائل لأنطلاقات فجائية لفترات جفاف طويلة، مثل ذلك الذي ضرب حضارات امريكا الشمالية الوطنية في اعوام القرن الثالث عشر. يوجد دليل جيولوجي جديد يشير الى فترات الجفاف هذه وقت سقوط حضارة المايا وحضارة ما بين النهرين القديمة ايضا(١٠)

أما الاختصاصي في علم المناخ "ستيفن شنايدر" في كتابه "تكوين استراتيجية: المناخ والبقاء الشامل" أصر على ان المناخ من الممكن ان يتغير بسرعة أكبر ويعنف أكبر مما يستطيع معظم الناس تخيله، ونصح الناس باستباط سياسات لتخفيف الصدمة، وذلك بواسطة بناء نظام زراعي أكثر صلابة، على سبيل المثال. وكما نصح يوسف الفرعون في سفر التكوين، يجب ان نحضر لسنين عجاف تتبع سنوات الفائض(١١)

سيناريو جنازة الارض

مثل هذه المخاوف تجد صداها في النقاش الذي تعدى الاوساط العلمية الى الاوساط السياسية والمرتبط بظاهرة الاحتباس الحراري وقد أصبح في عداد الثابت أن التأرجحات في درجات الحرارة التي كان يعتقد انها تستغرق عشرات الالاف من السنين في ستينيات القرن العشرين، والوف السنين في سبعينيات القرن العشرين ومئات السنين في ثمانينيات القرن العشرين، اكتشف الان انها تستغرق عقودا فقط(١٢)

وهناك سيناريوهات مخيفة تلاحظ ان التسخن على صعيد الارض يمكنه ان يجلب تبريدا مدمرا فوق رقعة من الكوكب من شيكاغو الى موسكو وهناك احتمال بأن تكاثف الغازات الدفيئة المستمر يمكنه ان يطلق عملية اعادة تنظيم للمحيطات..بامكان ذلك ان يؤدي الى مجاعة واسعة الانتشار(١٣)

كما وجدت دراسات جديدة ان تسخن المحيطات يمكنه ان يطلق عملية تحلل تركيزات الجليد داخل وحل قعر البحر وهذا من شانه ان يسرب كميات كافية من الميثان و co2 للغلاف الجوي ليسبب تسخنا اكثر. الدلائل الجيولوجية تفيد ان مثل هذه الكارثة كانت قد وقعت فعلا مرة واحدة، منذ ٥٥ مليون عاما، مسببة انقراضات هائلة(١٤)

ويمكن رسم سيناريو أكثر تفصيلية تبعا لدرجة ارتفاع الحرارة اذ يقول الخبراء انه اذا ارتفعت درجة حرارة الارض درجة واحدة فستختفي الانهار الجليدية الصغيرة في جبال الانديز لتهدد امدادات المياه لنحو ٥٠ مليون انسان، وسيموت ٣٠ الف انسان كل عام من الامراض المرتبطة بالمناخ، ٨٠% من الحدود المرجاني الكبير. وسيبدأ تدفق التيار الدافئ في المحيط الاطلسي في الضعف.

اما اذا ارتفعت درجتين فستنخفض امدادات المياه في بعض المناطق الاكثر هشاشة(مثل جنوبي افريقيا وحوض البحر المتوسط) بما يتراوح بين ٢٠% و٣٠% وسيتعرض ٤٠-٦٠ مليونا اكثر للأصابة بالملاريا في افريقيا، وسيعاني ١٠ ملايين انسان الفيضانات الشاطئية، وستصبح الانواع القطبية، خاصة الدب القطبي والرنة، معرضة لخطر الانقراض التام، وسيبدأ جليد جرينلاند في الذوبان على نحو لا يمكن ايقافه. ولو ارتفعت ثلاث درجات فسيشهد جنوبي اوربا موجات جفاف خطيرة كل عقد من الزمان، وسيعاني ما بين بليون واربعة بلايين انسان نقص المياه. بينما سيعاني خمسة بلايين فيضانات اكثر، كما سيعاني الجوع ما يتراوح بين ١٥٠ و ٥٠٠ مليون انسان، وسيموت مابين مليون وثلاثة ملايين انسان بسبب سوء التغذية، وستحدث تغيرات حادة في نماذج الرياح الموسمية، ويتزايد خطر انهيار الصفيحة الجليدية الغربية في القارة القطبية الجنوبية.اما اذا وصل الى اربع درجات، فأن هذا معناه انخفاض توفر المياه في جنوبي افريقيا وحوض البحر المتوسط بنسبة تتراوح بين ٣٠ الى ٥٠ في المائة، وانخفاض غلة المحاصيل في افريقيا بنسبة تتراوح بين ١٥ و٣٥ في المائة، وتعرض ٨٠ مليون افريقي اكثر للأصابة بالملاريا، وستزيل الفيضانات الشاطئية العديد من الجزر من الوجود وتشرد ما يتراوح بين ٧ و ٣٠٠ مليون انسان. صحيح أن تغير المناخ يحدث بتراكم شديد البطء لكنه سيصل عاجلا أو آجلا الى نقطة اللاعودة وحينها ستنطلق كوارث كابوسية تكفي واحدة منها الى أعدام الحياة الارضية فأفضل الصفيحة الجليدية الغربية في القارة القطبية الجنوبية يمكن أن يؤدي الى أرتفاع مستوى البحار بنحو خمسة امتار، والى تقويض الصفيحة الجليدية الشرقية للقارة القطبية الجنوبية التي تحتوي على كمية من المياه تكفي لرفع مستوى البحار خمسين مترا، وذوبان قمة جرينلاند الجليدية سيغمر مياه البحار والمحيطات العديد من التجمعات السكانية التي نعرفها اليوم، واذا بدأت اليابسة في نفث الكربون وتجثو الميثان المختزنين في باطنها فسيحدث تسارع كارثي في الاحتباس الحراري ربما يقضي على فرص أي عصر جليدي آخر قبل نصف مليون عام(١٥)

التلاعب بالكرة الارضية

اخذ حفظ التكامل الايكولوجي للارض اليوم يشكل احدى الاولويات لدى دعاة السلام وهم يقفون ازاء سيناريوهات تدمير العالم ويعون الطرق الفتاكة لقتلة الارض، لاسيما مع تطور تقنيات التحكم التكنولوجي بالبيئة وما قد تجره من وبال على مستقبل البشرية. وهذه ليست نبوءات دينية متعصبة وليست مسألة اعتقادات ميتافيزيقية بل معرفة علمية ومعطيات تجريبية وتقديرات وتقييمات عقلانية وان تكن قابلة للجدال. فبعض النكبات البيئية التي تحيق بالبشرية "مثل اعصار تسونامي" تدور علامات الاستفهام حول مصدرها : هل هي من خلق البشر ام انها تحدث بمشيئة الطبيعة؟.

إصبع الاتهام، لدى البعض، لا يشير مباشرة الى الطبيعة، بل الى تجارب عسكرية سرية للغاية في مياه المحيط الهندي. فمن الممكن أن يكون الزلازل الذي تسبب بإعصار تسونامي قد حدث نتيجة لتجربة نووية هندية شارك فيها خبراء نوويون أمريكيون وإسرائيليون. وليس هذا مجرد انفراد الى نظرية المؤامرة حيث يذهب الباحث الاسترالي جو فيالس في مقال له حمل عنوان" هل قامت نيويورك بصنع تسونامي الأسبوع" الى مدى سهولة إيصال سلاح نووي حراري متعدد الميغاطن (تصل قوته الى ما يعادل ملايين الاطنان من مادة ت. ن. ت شديدة الانفجار) الى قاع جرف سومطرة، ومن ثم تفجيره مما يولد آثارا رهيبة(١٦)

و يتفق الجيولوجيون وعلماء الزلازل على إمكانية احداث الزلازل بخمس طرق رئيسة: حقن السوائل في الأرض، استخراج السوائل من باطن الأرض،استخراج المعادن من المناجم أو اقتلاع الصخور من المحاجر، التجارب النووية، بناء السدود والخزانات المائية .وقد اقام البنتاغون في القطب الشمالي مشروع هارب "HAARP" وهو يحمل في طياته أمورا سرية تشمل تعديل الاحوال الجوية والسيطرة على العقل البشري، واجراء تجارب عسكرية عالية التقنية واحداث زلازل ارضية(١٧)

وقد نشر البروفسور جوردن ماكدونالد وهو عضو في اللجنة الاستشارية العلمية للرئيس الامريكي، أبحاثا عن استخدام تكنولوجيا التحكم بالبيئة للأغراض العسكرية،

وقال :إن مفتاح الحرب الجيوفيزيائية هو تحديد أماكن عدم الاستقرار البيئي التي يمكن بأضافة كمية قليلة من الطاقة إليها ان تحرر كميات من الطاقة أكبر بكثير من الطاقة المضافة.كما وصف كيفية تدمير البيئة عن طريق استخدام التلاعب بالاحوال الجوية، وتعديل المناخ وصهر القمم الجليدية، وتقنيات استنزاف الاوزون، وهندسة الزلازل الارضية(١٨)

اعلان الحرب ضد الطبيعة

في القرن الماضي سئل المهاتما غاندي أذا كان يود ان تصبح الهند المستقلة مثل بريطانيا العظمى. فأجاب: "بالتأكيد لا! فقد لزم بريطانيا العظمى نصف موارد الكوكب لتصبح على ما هي عليه الآن، فكم سيلزم الهند من الكواكب لتصير مثلها؟ "يدمر الانسان الارض اليوم بشكل غير مسبوق، فمنذ بداية الالفية حت اليوم تم اقتلاع نسبة ٦٠% من أشجار الغابات. ان هذا الرقم المخيف دفع الى تكوين آراء تكشف عن وعي عميق لحجم الكارثة. يرى بيتر رافين مثلا أنه منذ العصر الطباشيري، اي منذ ٦٥ مليون سنة، لم تعرف البشرية اندثارا للأنواع بمثل هذه السرعة. في ذلك العصر اندثر ثلثا الكائنات العضوية الموجودة على الارض، ومن بينها الديناصورات. (١٩)

الديمقراطيات المتطورة لم تعد تحارب بعضها بعضا لكن يجب ملاحظة انها انقلبت جميعها معا ضد العالم، الذي اصبح بطريقة ما ضحية التطور وكبش الفداء. ان هذه الحرب عالمية بمعنى الكلمة،لان العالم كله، بمعنى البشر، يفرض الخسارة على العالم، بمعنى الاشياء(٢٠) يدفع هذا التحدي العقل البشري الى توسيع مفهوم الامن وعدمه ليطال مجمل شروط الوجود البشري. الأمن منذ الان هو أمن بيئي وصحي واجتماعي وثقافي وإنساني بقدر ما هو أمن سياسي. اننا نواجه حربا من نوع اخر يخوضها الانسان ضد اساس وجوده، وهي حالة الحرب ضد الطبيعة، حالة حرب ضد البيئة. كان هوبز قد رأى في الخوف المحرض على العقد الاجتماعي، ويحرضنا الخوف مجددا على استكشاف اساس للعقد الطبيعي، اذ لم يعد العقد الاجتماعي كافيا لتأسيس السلم، لأن الحرب قد أعلنت من الآن فصاعدا على البيئة. لذلك تظهر الحاجة الى عقد طبيعي(٢١)

العقد الطبيعي الذي سينظم علاقتنا مع الطبيعة انتقالة

تنفذ مستقبلنا وتخرجنا من حالة حرب عبثية نتجت عن فقدان السيطرة . اصبح هذا البرنامج اليوم حتميا فقد اظهرت دراسة كندية اننا سوف نحتاج الى ثلاثة اضعاف حجم كوكب الارض، اذا انتشرت نماذج التطور وأساليب الاستهلاك الرائجة في اميركا الشمالية في مجمل المجتمعات البشرية. ولاستعصت عملية ادارة الوضع، في ظل واقع نماذج التطور الراهن. يجب اذن تغيير جذري لهذه المفاهيم.

لنحافظ على الارض ينبغي ان نذهب بعيدا الى ما قاله ميشال سير "علينا ان نقرر إقامة السلم بيننا لنحافظ على العالم، وأن نقرر إقامة السلم مع العالم لنحافظ على أنفسنا"(٢٢)

انقراض الانسان العادي

وبحسب الكاتب جيريمي ريفكين فأن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن التكنولوجيات الاحيائية. اذ تستعمل المعلوماتية لمعالجة الكمية الكبيرة من المعلومات الجينية التي تمثل المادة الأولية للاقتصاد الجديد والشامل، وذلك بفك رموزها ومراقبتها وتنظيمها. وبفضل هذه الوسيلة التقنية، انشأت الشركات متعددة الجنسيات مجمعات ضخمة مختصة في علوم الحياة بهدف بناء عالم صناعي احيائي.

ستوفر التجارة الجينية أجناسا جديدة من النباتات والحيوانات ومصادر الطاقة ومواد متجددة ومنتجات صيدلانية. ستكون لها تكلفتها فالخلق الاصطناعي لاجناس مستنسخة، خيالية ومتخيلة للحدود الجينية ربما سيؤول الى نهاية الطبيعة وتعويضها بعالم صناعي احيائي.

وربما سيؤدي التسويق على اوسع نطاق لاجسام مستحدثة بفضل الهندسة الجينية الى التلوث الجيني. وسيسبب ذلك في اضرار لا سبيل الى تداركها قد تلحق بالمحيط الحيوي في القرن الحادي والعشرين. وسيتحول اطفال المستقبل الى مجرد ملكية فكرية بحوزة مؤسسات مختصة في علوم الحياة؟ عالم يصنع فيه الاطفال على مقتضى الرغبات والشهوات منذ مرحلة الحمل، وتغدو فيه الكائنات البشرية مقولبة وخاضعة لضروب من التفرقة والتمييز، قائمة على رصيدها الجيني. مخاطر تنجم عن صنع اطفال متسمين لاول وهلة بـ"الكمال"(٢٣)

عما قريب سيتمكن الآباء والامهات آذن من برمجة مستقبل اطفالهم البيولوجي قبل ولادتهم. يكفي ان نعتبر اطفالنا بضائع من احدث طراز، يمكننا اقتناءها عند التسوق، حتى تطرح مشاكل مرعبة، عائدة لتحسين النسل، لأن من وراء هذه الرغبة بأعطاء الافضل لأولادنا وهي رغبة يمكن تفهمها بأية حال تطل فكرة الطفل المثالي(٢٤)..

ربما يمكننا والحال هذه تخيل مصيرنا كأقلية تناضل في سبيل الحصول على حقوق مساوية لبشر من صناعتنا يفوقوننا على جميع الصعد، هذه ما قد يؤدي اليه خلقنا لانسان متفوق يقضي على ما بقي من جنسنا الضعيف المنحط.

ستغير الثورة الجينية العالم الى الابد، في وقت تقودها وتتحكم بها مؤسسات علاقة مختصة بعلوم الحياة، تقوم بمدارات لمراقبة التجارة الجينية في القرن الحادي والعشرين. ذلك ان من يتحكم في الجينات يتحكم في القرن الحادي والعشرين، لان الجينات تشكل المادة الاولية للقرن الحالي مثلما كانت المنتجات النفطية والفولاذية والمعدنية مادة العهد الاستعماري والصناعي.

أما رهان اللعبة الحالية فهو اقتناء البراءات. ففي السنوات المقبلة، ستعزل عمليا كامل الستين الف جينة التي تكون الخارطة الاصلية للجنس البشري، وستصبح في الواقع كل هذه الجينات، خلال عشرين سنة على الاقل، ملكية فكرية لاحدى تلك المؤسسات المختصة في البحث التكنولوجي الاحيائي.

فهي بصدد اسكتشاف المعمورة على عجل، مفتشة عن الجينات النادرة في الطبيعة ومتوجهة الى النصف الجنوبي من الكرة الارضية(حيث يتكاثر التنوع الاحيائي) بحثا عن اندر البكتريات والفايروسات والنباتات والحيوانات والاعراق البشرية، لعلها تجد فيها جينة نادرة ذات قيمة تجارية محتملة. وما ان تستكشف هذه الجينات وتعزلها حتى تبادر بتسجيلها باسمها. اننا نشهد اليوم سباقا عنيفا لاحاطة اخر الممتلكات العمومية بأسوار وسياجات بهدف حيازة الحدود البيولوجية للحياة. يمكن تسميته "النهب الاحيائي"(٢٥) سيخيم التلوث الجيني على القرن الحادي والعشرين وسيهدده كما هدد التلوث البتروكيمياتي والنووي القرن العشرين. في هذا الوقت بالذات، تصنع المؤسسات المختصة في علوم الحياة، داخل مخابرها، مئات الاجسام المكيفة جينيا وتدخلها في المحيط عة.

الحيوي. لكنّ هناك فرق كبير بين صنع بكتريات او فيروسات او نباتات او حيوانات معدلة جينيا او ادخالها في المحيط وبين ادخال منتج كيمياتي او نووي فيه، اذ يتعلق الامر بأجسام حية وعلى هذا الاساس غير متوقعة. فهي تتناسل وتتبدل وتتكاثر وتتنقل. ينبغي ان نعرف ان هذه الصناعة لاتقدم لنا اية ضمانات على الخسائر الفاجعة التي قد تتولد عن المعالجات الجينية، بما إننا نفتقر بالذات الى علم يسمح لنا بتقدير المخاطر. فمن سيكون مسؤولا عندما يتحول جسيم معدل جينيا الى آفة ويتسبب في كارثة(٢٦) خلف ذلك تطل مخاطرة محتملة، اذ لن يكون صعبا تخيل انحراف في الهدف بهدف تخليق وحش ينتشر كوباء هائل يغير ملامح المعمورة ويتسبب بانقراض البشر، وقد غذت هوليوود بافلامها المزيد من هذه المخاوف من خلال استعراض انحراف التجارب المختبرية نحو تخليق وحوش صناعية قاتلة.

الايام الاخيرة لعصر النفط

ومن السيناريوهات المعجلة بانهيار حضارتنا ما يتعلق باستنفاد مصدر الطاقة المحرك لعجلة التقدم الحضاري فقد تكهنت وكالة المعلومات حول الطاقة ان حاجات العالم من النفط ستستمر بالإزدياد بمعدل يصل الى ٦٠% بحلول العام ٢٠٢٠ اي بما يعادل ٤٠ مليار برميل سنويا او نحو ١٢٠ مليون برميل يوميا(٢٧) وان كانت الحالة هكذا فسوف يعجز انتاج النفط عن سد حاجاتنا وسيكون ذلك الخبر الاهم بالقرن الحادي والعشرين على حد تعبير ريتشارد هاينبرغ في كتابه "انتهت الحفلة: سراب النفط" بل انه يرى أن فظائع هجمات ١١ ايلول ستصغر ازاءه. فالنفط هو الذي جعل الصناعة بالقرن العشرين امرا ممكنا وهو الذي كان وراء اعطاء الولايات المتحدة مايميزها اقتصاديا وتكنولوجيا مما جعلها القوة العظمى في العالم.

العالم برمته يقف على حافة كارثة اقتصادية كبيرة محتمة وغير مسبوقة.

ويرسم الكاتب سيناريوا تفصيليا لملامح الحدث الحاسم المقبل، اذ بسبب افتقار السياسيين الى حل سيذهبون الى المجهول لطمس الاسباب الحقيقية للتغيرات التي تعصف بالمجتمع، ولن يقرأ او يسمع احد من الناس عن وصول الوقود الى ذروة الانتاج، لكنهم سيلاحظون الارتفاع الحاد في اسعار السلع الاساسية وسيعزى الاضطراب الاقتصادي الى جماعة سياسية اوعرقية او دينية في هذا المجتمع او ذاك بدلا من ارجاعه الى السبب الحقيقي وهو الصناعة بحد ذاتها.سيلقي اليساريون اللوم على الاشخاص والشركات الغنية بينما سيلقي اليمينيون اللوم على الاجانب والارهابيين واليساريين. وفي هذه الحالة سيعمد اليمين- في نظر الكاتب- الى استغلال حاجة الناس الى الامن والاستقرار في عهد الاضطراب. وسيهرع الناس الى القادة الاقوياء، لدى خوفهم من انهيار القانون والنظام. واذا فازوا في السيطرة على السلطة فستهدد الحريات المدنية (على حساب اليساريين والاقليات والاجانب) وتتنامى القوة العسكرية والبوليسية.

في حين سيستغل اليساريون الازمة في اثارة سخط الشعب على الاثرياء واصحاب السلطة، الذين يحصلون على حصص غير عادلة من الطاقة على حساب الاعداد الكثيرة من الذين لايحصلون على شيء. سيثور المواطنون على السياسيين وقادة الشركات بسبب فشلهم في توقع الامر المحتوم وفشلهم في تحذير الناس، وفي الوقت الذي سيجد فيه الاغنياء صعوبة في السيطرة الاجتماعية وفي تبرير عدم التساوي الفاضح. سيشكل فوز اليساريين تمردا للمزارعين يعاقب على أثرها الاغنياء.

سيؤدي الانحدار في اقتصاد الطاقة العديم الشفقة الى تصنيع سيارات بعدد أقل، وسيهرم الاسطول العالمي من السيارات بمرور الوقت وسيتناقص عدده من خلال الانهاك. اما شبكة الطرق عبر العالم والتي تضخمت بفعل توفر النفط الرخيص فستتوقف اعمال بنائها وستسوء حال الطرق الموجودة. وسيقل الاعتماد على الطيران الجوي وستضعف السياحة في العقود المقبلة جالبة نتائج كارثية على الاقتصاديات التي تعتمد على السياحة. وسيتأثر توزيع البضائع نتيجة تضاؤل الوقود اللازم للنقل - جوا وبحرا وبرا- ونرى حتمية العودة للمنتجات المحلية من قبل المستهلكين المحليين في نوع من العولمة المعاكسة.

كما ان المعجزة الزراعية التي حصلت في القرن العشرين قد تصبح كارثية في القرن الواحد والعشرين. فالزراعة الصناعية الحديثة طاقة تكثيفية بكل المضامين فالجرارات والآلات الزراعية الاخرى تعتمد

على حـــرق الكازولين، النتروجين ينتج عن الغاز الطبيعي، و تصنيع المبيدات الحشـرية والمسـتخدمة للقراض والمبيدات العشبية من النفط.وتنقل الحبـوب والكيمياوات والمحاصيل لمسـافات طويلة بواسـطة الشاحـنـات، ويطهى الطعام عادة باسـتخدام الغاز الطبيعي، ويغلف بالبلاستيك المصنع من مواد بترولية قبل الوصول الى المسـتهلك .وسـيندفع الاشـخاص القادرون على صيد الاسماك والحيوانات البـرية لفعل ذلك بمعدلات عالية، وستجد وكالات الحماية صعوبـة في السيطرة على الصيد الجائر للحـيوانات التي تصلح كغذاء وبـدا تتعرض اجناس وحـيوانات كثيرة لخطر الانقراض. كما سيؤثر انتقال الطاقة بشكل مباشر على البيئة الطبيعية. فعلى الرغم من ان نضوب النفط والغاز الطبيعي قد ينجز ما بدأته بروتوكولات كيوتو المتعلقة بالانبعاثات الغازية المساهمة في ظاهرة الدفيئة العالمية فأنها من جانب اخر ستؤدي الى القضاء على الاشجار المعمرة وعلى الاشـجار في جوانب الطرقـــات في المدينة، كما سيؤدي الى تقليل التحـكم بـالتلوث على معمل الفحـم ما سـيؤدي الى مزيد من تلوث الهواء والمطر الحامضي، وسيتم بـناء مفاعلات نووية جديدة وتتبعث مشكلة التخلص من الفضلات النووية، ما يعني ان لهذه الاستراتيجيات كلفتها البيئية الكبيرة.

كما ستصبح انظمة الصحة العالمية الدولية والوطنية والمحلية عرضة للانهيار، ذلك لاعتماد عمليات تكرير المياه ومياه الصرف الصحي والبحوث الطبية وتصنيع وتوزيع المضادات الحيوية واللقاحـات جميعها، على الطاقة، ما يترتب عليه انتشار الاوبئة وبـالتالي ارتفاع معدل الوفيات. هذا عن مصير المجتمعات الصناعية اما المجتمعات المنتجة للنفط فإن هناك مثلا سعوديا يلخص حـالها يقـــول " امتطي والدي الجمل..وها انا اركب سيارة.. ويركب ابني طائرة نفاثة..وسـيمتطي ابـنه جملا"

فوضى خلاقة أو صناعة (تسونامي)

تلزمنا السيناريوهات السابقة بالتفريق بـين نوعين من تسونامي، الاول طبيعي يحدث بمشيئة الطبيعة، والثاني صناعي يحدث بمشيئة البشـر، الاول كما هو معروف مصطلح ياباني تحول الى لعنة بشرية، فـ(تسـونامي) كلمة يابانية الاصل تعني موجة خليج او موجة ميناء .

ومن فرط تعرض اليابـانيين لكوارث بـيئية مرعـية تمخضت عنها موجات التسونامي فقد اطلقوا هذا الاسم الغريب على هذه الظاهرة المدمرة، ويجـري اليـوم استخدام التسونامي في وصف الامواج البحرية الناجمة عن زلازل. واكبـر عدد من كوارث التسـونامي (الطبيعية) يتولد في المحيط الهادئ المعروف بـ(حزام الزلازل) نظرا لوجود اكثر مناطق الارض تعرضـا للهزات والرجات.

كما ان اكبـر عدد من كوارث التسـونامي(الصناعية) يتولد في الشرق الاوسط في منطقة دعنا نسميها(حزام الكوارث) نظرا لوجود اكثر مناطق الارض تعرضـا للازمات والحروب والخراب.وهناك تسونامي خاص بكل دولة من دول الشرق الاوسط : تسونامي عراقي، تسونامي ايراني، تسونامي سوري، تسونامي لبـناني، تسونامي فلسطيني، تسونامي اسرائيلي.

تدفعنا دراسة ظواهر تسونامي الصناعي الى القول :أن كل تغيير في الجو الســاكن لمناخ التاريخ والاتجاه بـه نحو منحى جديد يأخذ صفة التغيير الثوري ويتلازم ذلك مع برق العنف ورعد الارهاب واشتداد ريح التخريب والابادة، أي مع احداث أثار تسونامية لامحالة.

ويبدو أن العنف الملازم لتسونامي الثورات والتحولات التاريخية يأخذ سمة بنيوية وليس عرضية اطلاقـا، منذ الثورة الفرنسية حتى يومنا هذا، فعندما انطلق تسونامي تلك الثورة هاج نور العنف ونطح بقـــرنيه عرش الاستقرار الملكي ودهس الجماهير وسحقـهم باقـدامه ففي حادثة فاندي ١٧٩٣ قام الثوريون بهولوكوسـت مريع ضد المتمردين، ذبحوا النساء والاطفال في سبيل اجتثاث اعداء الثورة حتى ان المؤرخ الفرنسي "بـيير شونو" ذهب الى ان قوات الثورة الفرنسية قامت بعملية إبادة كانت في فظاعة الابادة النازية واشـد فاعلية منها وقال جنرال الثورة الفرنسية وسترمان "لقد دست على الاطفال بسنابك خيلي وذبحت النساء حـتى لا يلدن أي معاد للثورة بـعد ذلك ."تلازم تســونامي الثورات بالضَرورة مع الهولوكوست لن يكون انحرافا او سـمة عرضية بل هو سمة بنيوية او ظاهرة حتمية تر افق كل عملية تغيير للواقع واعادة بـنائه كما ان هناك قـانونا مناخيا عاما يحكم تسونامي الثورات يلخصه الشـعار المعروف المستقى من تجربة الثورة الفرنسـية (الثورة تأكل ابناءها)

تســونامي الامريكي اليوم (بـــوصفه ظاهرة ثورية)

تحكمه تقاليد مختلفة بعض الشيء فهو مأخوذ بالنزعة الاستهلاكية وحمى التسوق لذا نشأ طبقا لآلية تصدير تسونامي الداخلي للخارج فالدول التي تعاني حالة اختناق وتوتر تستطيع احداث نوع من التفريغ لرياح الفوضى المحملة بغيوم العنف وتصديرها للخارج، وهو ما يشخصه منطاد المراقبة الامريكي بغيمة عدو خارجي قادمة من الشرق. وكانت نظرية صراع الحضارات لهنتنغتون اشبه بالدليل السياحي للعاصفة القادمة اذ يقترح الكونفوشيوسية والاسلام كعدو بديل للشيوعية فعلى موجات المد البحري ان تتبع مشرق الشمس حيث اتجه الاسكندر المقدوني ذات مرة، ولم يكن غريبا ان يقوم تسونامي البنتاغون الوقائي المتوجه نحو سواحل الشرق الاوسط بعد انهيار البرجين التوأم في نيويورك على منطق مفاده ان مجتمعات الشرق الاوسط مجتمعات خاملة ثقافيا وراكدة سياسيا فلابد من خلخلتها وتحريكها برياح التدخل العسكري المباشر او ممارسة الضغوط بغيوم المطر المحتملة او العواصف الرعدية الدبلوماسية حتى يحصل نوع من التغيير الجيوسياسي العام للمنطقة، لاسيما أن النظرة التي تحكم هذا المنطق تنطلق من رؤية استشراقية ترى في المنطقة تجمعا لاقليات دينية وعرقية عاجزة عن التعايش مع بعضها البعض ضمن مشروع دولة وطنية، ويطلق على استراتيجية هذا التسونامي تسمية (الفوضى الخلاقة) حيث يميل تسونامي هذا الى تغذية الصراعات والانقسامات بين هذه الاقليات وصولا الى تبني فكرة الهدم الكامل ثم البناء من جديد، أي العودة الى المرحلة صفر قياسا على تسونامي الذي نشأت على انقاضه الولايات المتحدة أو التجربة المكونة (على حد تعبير أدوارد سعيد)، يوم قام المد الهائل للمهاجرين الاوائل بأجتثاث السكان الاصليين من الهنود الحمر وتم بناء الدولة على انقاض جماجمهم وعقائدهم واراضيهم.

وقد نجح تسونامي في تحقيق اهدافه خلال القرن العشرين، فقد عصف بأمبراطورية الرجل المريض (العثمانية) وفتتها الى جزر ودول منفصلة، كما شارك المد المحطم لسياسة العزلة في اخراق جزيرة هتلر النازية بعد الانتصار خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد اسقاط قنبلتي هيروشيما ونكازاكي اغرقت جزيرة الامبراطور الياباني المنعزلة، ثم تم الشروع ببناء مجتمعات جديدة وهو التحدي المطروح منذ ٢٠٠٣ بالنسبة للعراق نظرا للعديد من تسونامات المضادة للتسونامي الاميركي على طول سواحل العراق مع دول الجوار الجغرافي في منطقة حزام الكوارث الشرق أوسطية .

الايمان بـ(غايا)

ربما يكون الانسان، الزائر الغريب القادم من الفضاء، الذي هبط ذات مرة ونما على هذه الارض بهدف تدميرها، فقد اثبت انه اقوى من الجراد واشد فتكا من السرطان والطاعون. نحن بحاجة لعلاج هذا السرطان واستئصال هذه الدملة، بأحداث تغيير نوعي في العقل البشري، نحن بحاجة ماسة الى مشروع حيوي جديد، يضع الانسان في مكانه الصحيح في هذا الكون، ونظرة تقوم على الانسجام بين الانسان والطبيعة واحترام الارض وتوقيرها.

وعلى نحو اكثر تحديدا فأن وضع حد لتدمير الانسان للارض والتضحية القربانية بالطبيعة والمؤسسة على اعتبار الانسان سيد الطبيعة ومسخرها، لا يقوم على مجرد حماية البيئة او وضع حد لتخريب الغرب الصناعي للطبيعة بل ان الاصلاح الناجع ينطلق من وجوب تشييد نظام سياسي عالمي مسؤول من الناحية الاخلاقية والاجتماعية ومطالبة بهيئات دولية جديدة تفرض نظاما عقلانيا على الثورة ما بعد الحداثية والتكنو رأسمالية التي لا يمكن التنبؤ بها(٢٨) سيتطلب تأمين مستقبل الانسانية تحولا راديكاليا من نظام متوجه نحو النمو والاستغلال الى نظام يرتكز على الاستقرار وصيانة الموارد والقضاء على التفوت الهائل بين مجتمعات عالمنا الواحد، التي يجمعها مصير واحد ويحكمها مستقبل مشترك، ويعد خلق نظام لاعادة توزيع الموارد في نظام عالمي جديد ضرورة اخلاقية وعملية عاجلة.

ينبغي علينا ان نهتدي بفرضية "غايا" وان نفسح لها مجالا في معتقداتنا وعملنا و فرضية "غايا" هي بالاساس نظرية لجيمس لاڤلوك واخرين، تقوم على ايمان عميق بأن كوكب الارض "حي" بالمعنى الحرفي للكلمة، وان المحيط الحيوي يكون كائنا حيا واحدا مع قانون حياة وآليات ذاتية التنظيم تكون بيئته.

الايمان بـ"غايا" ربما سيفسح المجال اخيرا امام تغيير لولادة انسانية جديدة تعانق الوجود في محيطه الحيوي وتمتد جذورها عميقا في كوكب الارض .

الهوامش

١-جيسون جيفري، الزلازل الأرضية: هلى هي طبيعية أم من صنع الانسان؟ ترجمة إنصاف سلطان البارر، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، العدد ١٤٠ لسنة ٢٠٠٧، ص١٢٧

٢-المصدر نفسه، ص.١٤٠

3-جيسيكا وليامز، ٥٠ حقيقة ينبغي ان تغير العالم، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٥، ص١٨٣

٤-المصدر نفسه، ص٥٥

٥- المصدر نفسه، ص١٤٥

٦- المصدر نفسه، ص٢١٩

٧-نعتمد في رسم سيناريو الكابوس على المعلومات الواردة في ملف الوباء القادم المترجم في مجلة الثقافة العالمية، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، العدد ١٣٤ لسنة ٢٠٠٦، ص٥٥-١١٩.

٨-سبنسر ر. ورت، اكتشاف الاحتباس الحراري الكوني، ترجمة مركز التعريب والترجمة، بيروت،الدار العربية للعلوم،٢٠٠٤، ص١٦٥

9- المصدر نفسه، ص-١١٠

10- المصدر نفسه، ص ٢٠٨

11- المصدر نفسه، ص.١١٠-١١١

12- احمد الشربيني: البشر مسئولون عن الاحترار الكوني، مجلة العربي، العدد ٥٨١، ابريل ٢٠٠٧، ص ٢٠٦

13- المصدر نفسه، ص٢٠٧-٢٠٨

14- المصدر نفسه،. ص٢٠٨

15- احمد الشربيني، قبو يوم القيامة، مجلة العربي، العدد ٥٨٢، ٢٠٠٧،. ص ١٦١-١٦٢.

16- جيسون جيفري، مصدر سابق، ص ١٢٥

17- المصدر نفسه، ص.١٣٠

18- المصدر نفسه، ص ١٤٠

19 -القيم إلى اين؟ مداولات القرن الحادي والعشرين بإشراف جيروم بندي ترجمة زهيدة درويش جبور وجان جبور، دار النهار بيروت ٢٠٠٥، ص ٢٣٨

20- المصدر نفسه، ص٢٣٣

21- المصدر نفسه، ص ٢٣٢

22- المصدر نفسه، ص ٢٣٢

23- جيروم بندي(اعداد) مفاتيح القرن الواحد والعشرين، تعريب سعاد التريكي واخرون، دار النهار ٢٠٠٤،ص ٨٨-٨٩

24- المصدر نفسه، ص ٩٠

25- المصدر نفسه، ص٨٩

26- المصدر نفسه، ص٩٠

27- نعتمد في رسم هذا السيناريو على المعلومات الواردة في الفصل الخامس من كتاب: ريتشارد هاينبرغ، انتهت الحفلة/ سراب النفط: النفط والحرب ومصير المجتمعات الصناعية، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٥، ص٢٥٧-٣١٠

28- آرثر هيرمان، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، ترجمة طلعت الشايب، المجلس الاعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٠، ص٤٩٠-٤٩١

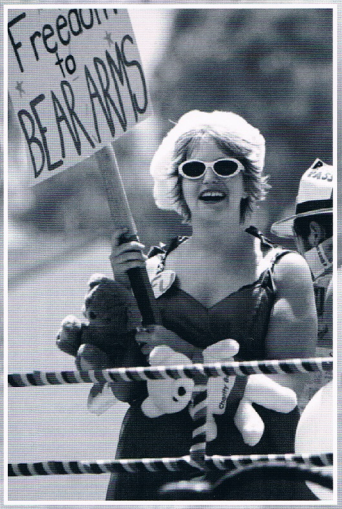

حول حرية الكلام

روي هاريس
ترجمة: باقر جاسم محمد

تتكشفُ الإنحيازات العقلية المستقرة في الحقل العلمي الأكاديمي بأجلى صورها عندما تؤخذ بعين الاعتبار ليس مدى التفسيرات التي تجعل بالإمكان تيسرها للظواهر الواقعة في دائرة اهتمامها فحسب، بل الأحرى في الأسئلة ذات الصلة بتلك الظواهر التي لا يمكن طرحها داخل الإطار النظري الذي توفره.

و القضية الوثيقة الصلة بهذا الموضوع هنا هي اللسانيات و مسألة حرية الكلام .مع أن اللسانيات الحديثة قد زعمت أنها قد أنشأت علما للاتصال الكلامي، فإن نموذج الاتصال الكلامي الذي تبنته على الدوام(سوسور ١٩٢٢: ٢٧-٨؛ دينيس و بنسون ١٩٦٣: ٤-٧؛ كاتز ١٩٦٦: ١٠٣-٤٤؛

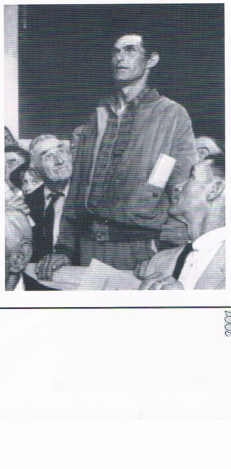

تشاف ١٩٧٠: ١٥؛ كايرنز و كايرنز ١٩٧٦: ١٥) قد كان من النوع الذي يستبعد بالنتيجة أيّ احتمال لإثارة أية قضايا تتعلق بحرية الكلام. إن السبب في هذا هو أن النموذج المتبنى يقترح في الأساس صحة وشرعية ثلاث من عمليات التجريد:

(1) فهو يتجرد من هويتي المتكلم و السامع.

(2) و هو يتجرد من السياق الاجتماعي المحدد لفعل الكلام.

(3) و هو يتجرد من مضمون ما يقال .و بتفعيل عمليات التجريد الثلاث هذه، يزعم أنها ستكون ذات فوائد في تقديم نموذج يتمتع بأقصى درجة من العمومية، تجرد اللسانيات، في النتيجة، اللغة من سياقها. فالكلام يعزل في فضاء نظري فارغ لا يمنحُ فيه المتكلم أو السامع أية حُقوق لسانية، كونهما كليهما ليسا بشخصين (حقيقيين: المترجم)، لكنهما مشتركان مجهولا الاسم.

و يدافع الباحث اللساني الأصولي عن هذا النموذج النظري بالحجاج بأن مسألة حرية الكلام تتضمن أحكام قيمة أخلاقية و سياسية، و هذه لا مكان لها في أية دراسة علمية للكلام. و لكن هذا هو مجرد تكرار لعمليات العزل و التجريد التي بُنيت عليها اللسانيات

الحديثة، و ليس تقديم مسوغات لها. و من ناحية أخرى فإنه سيكون نظراً أحـادي الجانب إذا ما وضعنا اللوم على المنظر اللساني فحسب؛ لأن الفلاسفة الذين تناولوا مسألة حرية الكلام بالبحث قد فعلوا ذلك غالباً على نحو مشابه و بطريقة تتجاهل ببســاطة تلك الوجوه التي لها علاقة منطقية بأساسها اللساني، ولذلك فهي تقدم، على نحو غير مباشر، دعماً لرفض الباحث اللساني أن يأخذ بعين الاعتبار أمثال تلك القضايا.

و يمثل جون ستيوارت مـل عينة مثالية، فليســت مصادفة أن معالجة مـل قد بقيت مؤثرة خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشــر ، و هي المرحـلة التي تشكلت فيها اللسانيات الحـديثة. و حـتى في الوقـت الراهن، يظل القول صحيحاً انه لا شــيء قـد كـُتب حـول حـرية الكلام يتفوق على ما خصصه ميل لذلك الموضوع في مقالته" حول الحـرية"(مـل ١٨٥٩)أو يجعل منه قـــديم الطراز . و منذ العام ١٨٥٩ صارت وجهة نظر مـل في حـرية الكلام مقبـولة على نطاق واسع بوصفها جزءاً من الموقف الديموقراطي الشـائع تجاه أنماط الحكومات المتسلطة، و إذا ما نـودي للدفاع عنها، فإن الكثير سيشيرون ببساطة إلى أنظمة سياسية حديثة مثل تلك التي في روسيا في ظل ستالين و أتباعه، و ألمانيا في ظل هتلر، و الصين في ظل ' الثورة الثقافية '، بوصفها أمثلة رهيبـة لما يمكن أن يحـدث للمجتمع الذي يسخر من المبادئ التي دافع عنها مـل.

حرية الكلام ، بالنسبة لمـل ، هي سفينة القـيادة في أسـطول الحـريات المدنية؛لأن الكلام هو الطرح الخارجي لأحكامنا العقلية، و لأن حرية قرار الحـكم لا يمكن فصلها عن حرية الكلام. فإن "منطقـة الحـرية الإنسانية" يقول مـل:

تتضمن، أولا، منطقة الوعي الداخلي، وحرية متطلبـة للوعي بأوسع المعاني، حرية الفكر و الشعور، وحرية مطلقة للرأي و العاطفة حول كل الموضوعات ، سواء أكانت عملية أم تأملية أم علمية أم أخلاقية أم لاهوتية. قد تبدو حرية التعبير عن الآراء و نشرها واقعة في نطاق مبدأ مختلف؛ لأنها تعود إلى ذلك الجزء من سلوك الفرد الذي يخص أناساً آخرين، لكن لكونها تكاد تكون بأهمية حرية الفكر نفسها و تسـتند في جانب كبـير منها على الأسباب نفسها، فإنها عملياً غير قابلة للفصل عنها.

(ميل ١٩٥٩: ٧١)إن 'عدم إمكانية الفصل' هذه هي مكون حركي فعال في مناظرة مل؛ لأنه بدونها سيكون عرضة للاعتراض نفسه،أعني أن حرية الكلام يجب أن لا تلتبس مع حرية الفكر و هي مسؤولة إزاء مبادئ مختلفة تماماً. و الأكثر إثارة للدهشة هو ان مل في مقالة حول الحرية لم يوضح بتعبيرات لا لبس فيها طبيعة 'عدم إمكانية الفصل' هذه أو الدليل الأساسي في دعمها. و برغم ذلك، قد يغامر المرء في بناء حالة مشتقة من الأسباب التي أوردها لمصلحة حرية الكلام. و هذه الحالة يمكن أن تكون على النحو الآتي: تشكل أحكامنا على أساس المناقشة مع الآخرين. و لكن إذا ما كان الآخرون غير أحرار في التعبير عن آرائهم الصادقة، فلن نستطيع أن نعرف منهم، بشكل يعول عليه ، ما وجهات النظر التي يحملونها ولماذا؟ و نستنتج من ذلك أن المناقشة أساس غير ثابت للبناء عليه من أجل الوصول إلى أية نتيجة أو تقويم أية قضية. و باختصار ، فإن المجتمع الذي ليس فيه حرية كلام يجب أن يكون بالضرورة مجتمعاً تكون فيه كل الأحكام مشوهة نظامياً بوساطة التهرب والمراوغة، و في مثل هذا المجتمع ستكون حرية تكوين الحكم وهماً. (اللجمة العقلية من هذا النوع، كما قد يزعم كثيرون، هي بالضبط ما حصل عندما قمعت حرية الكلام لفترات طويلة في الأنظمة الشمولية)

ان معقولية نسبة مجرى من الحجاج العقلي إلى مل من قبيل المقترحات التي أعيد صوغها في أعلاه تحظى بأرجحية اعتماداً على الأهمية التي يعلقها على الوصول إلى الحقيقة عبر موازنة الآراء المتضاربة. و هذا هو الأساس لرفضه الإقرار بأن لنا أية مسوغات في قمع وجهة نظر ما على أساس كونها كاذبة لا غير، و بعبارة أعن حقيقة إننا ربما نكون على خطأ في افتراضنا إنها كاذبة، لا يمكن اختبار الحقائق إلا من خلال مقارنتها بالأكاذيب.

الحرية التامة في تناقض رأينا و عدم إثباته هي بذاتها الشرط الذي يسوغ لنا افتراضا كونه حقيقة لغرض الفعل،و ليس من صيغة اصطلاحية أخرى يمكن،بارتباطها مع الملكات الإنسانية، أن تنطوي على توكيد عقلاني على كونها صائبة.

(نفسه: ٩٧)

في النظرة الأولى، يبدو هذا الأمر كما لو كان يترك افتراض مل النظري ضعيفاً إزاء الاعتراض القائل

انه يجيز نشر مختلف أنواع الأكاذيب تحت المظلة المشوشة لحرية الكلام . و طريقة مل للخلاص من هذه المشكلة هو استدعاء التحذير بأنه ليس من شأن أي تعبير عن أية وجهة نظر، سواء أكان صادقاً أم كاذباً، سيؤدي بالضرورة إلى إيذاء شخص آخر . (و قد طبق هذا القيد نفسه ليس على حرية الكلام كُمبدأ و لكن على كل الحريات.) و على هذا النحو، مثلاً، فإن التعبير عن وجهة النظر بأن الملكية الخاصة سرقة، على الرغم من أنه ليس استنتاجاً بحد ذاته، يصبح عرضة للوم حينما يحرض الغوغاء على العنف.

لاأحد يزعم أن الفعل يجب أن يكون حراً كما الآراء تماماً. على العكس، إذ حتى الآراء تفقد حصاناتها حينما تغدو الظروف التي يعبرُ فيها عنها من النوع الذي تجعل التعبير عنها يمثل تحريضاً إيجابياً دافعاً إلى فعل مؤذ و عابث.

(نفسه: ١١٩)

و هذا يعني ، بلغة نظرية أفعال الكلام الحديثة، أن مل يدرك أن الآثار التنفيذية لفعل الكلام هي ما يحدد في نهاية المطاف جدارتها في القبول في نطاق السماح الذي تقدمه حرية الكلام. و في حال ضمان هذا؛ فإن من الصعب أن نرى كيف يمكن أن يتجنب مل النتيجة الطبيعية بأن أية وجهة نظر، سواء أكانت صادقة أم كاذبة، هي بطريقة مماثلة عرضة للنقد إذا كانت الظروف التي قيلت فيها هي مما تكون نتيجته فشلا ضاراً في الشروع بالعمل.(و بذلك، على سبيل المثال، فإن التعبير عن القناعة بقدرة الإيمان على الشفاء يمكن أن يكون موضع نقد إذا ما نتج عنه موت شخص يمكن أن تنقذ حياته المعالجة الطبية).

و على الرغم من كون الأساس العقلي كافياً ؛ فإن ما يترتب على هذا النظام لـه نتائج منطقية مدمرة بالنسبة لافتراض مل النظري؛ لأنه لا يمكن بسلاطة الافتراض بأن الآثار التنفيذية أو أية آثار محتملة لأي نطق محدد هي واضحة. و قد لا يكون الناتج الضار مقصوداً أو متوقعاً في الوقت نفسه الذي تم التعبير فيه عن وجهة النظر موضع البحث. إذ إن مسألة تحت أية ظروف تمثل التعبير عن وجهة النظر القائلة ان الملكية الشخصية سرقة تحريضاً على العنف أو الأعمال غير القانونية هي ليست مسألة خلاقية فحسب و لكنها خلافية بطرق تشمل عملية وضع ذات الحقوق و المسؤوليات المناسبة لحرية الكلام موضع التنفيذ. و ما يعنيه هذا م هو إنه على الرغم من أن مسألة حرية الكلام تبدو قد حظيت بالحل أخيراً ، فإنها تبرز بشكل غير متوقع مجدداً و بنقلة واحدة بوصفها مسألة حول حرية الفعل.

و الأكثر من هذا؛ فإن ما سيؤول إليه الناتج الحقيقي في أية حالة محددة لن يكون ذا عون. فإذا كان من حق الشخص (أ) أن يحاول إقناع الشخص (ب) بعدم ربط حزام الأمان فإن هذا الأمر لا يعتمد على ما إذا كان (ب) أصيب بجروح بحادث طريق أعقب ذلك. و من الواضح ، على أية حال، إنه حالما يجري وضع التوضيح المسبق للعواقب الوخيمة موضع التنفيذ يغدو مناسباً تماماً أن نضع في الاعتبار الآتي: من يقول، ماذا يقول، و لمن يقول. و لعل ما يثير القلق أكثر هو الأخذ بالحسبان بأنه يبدو من المستحيل بصورة عامة أن نحسب كل العواقب التي يمكن، من الناحية النظرية، أن تنجم من أي نطق محدد سواء أكان ذلك بإفاضة أم باختصار. لذلك فإن التعبير عن الرأي ، برغم كل شيء، متوقف على كل الاشتراطات التي تحكم الفعل غير اللفظي. فملاحظة الملك غير الحذرة ما كانت أقل فاعلية بوصفها أداة في قتل توماس بيكيت من أفعال الفرسان الذين قتلوه.

أين يترك ذلك حرية الكلام؟ في المعتزل نفسه تقريباً، كما يبدو، كما لو أنها تحت رعاية النظرية اللسانية. و بعبارة أخرى، تماماً كما يجرد توضيح عالمُ اللسانيات التواصل الكلامي من هويتي المتحدث و السامع، و من محتوى ما قيل، و من الظرف الاجتماعي لفعل الكلام، كذلك يبدو توضيح الفيلسوف غير استنثائي بشرط أن تنجز تجريدات مشابهة. و لكن حالما يتم تحديد فعل الكلام ووضعه في سياقه فإن مسألة حرية- حقوق المتكلم- تصبح مباشرة إشكالية. و على ذلك فإن القضية التي مررها عالم اللسانيات إلى الفيلسوف قد مررها الآن الفيلسوف. لأنه نوع من التهرب و المراوغة أن توضع مبادئ أساسية يولد تطبيقها على حالات معينة مسائل مثيرة للجدل من النوع نفسه الذي أستعين بتلك المبادئ الأساسية لحسمها. فكل من الشبكة اللسانية و الشبكة الفلسفية قد سمحا بمرور شيء مهم عبر هما.

إن المفتاح إلى ما مر عبر الشبكتين يمكن العثور عليه في الفصل الختامي الغريب من كتاب روسو مقالة حول أصل اللغات. يجادل روسو بأن هنالك بعض الألسن التي تنزع إلى الحرية. إنها الألسن الجمهورية الرنانة،

التي تنطوي على قسيمة عروضية، و المتناغمة التي يمكن أن يفهم فيها الخطاب من مسافة بعيدة جداً وهو يستمر ليصنع جملة من الملاحظات غير المقنعة حول نسبية قابلية اللغات المختلفة للسماع، زاعماً أن الإغريقية قد كانت متفوقة إلى حد بعيد على الفرنسية الحديثة في هذا الجانب. و هيرودوتس ، يقول روسو، قد روى تأريخه إلى حضور في الهواء الطلق و هم كانوا يستطيعون سماع ما كان يقول. و أية لغة لها قابلية سماع منخفضة تناهض الحرية. ' أزعم أن أية لغة لا يستطيع المرء من خلالها أن يجعل من نفسه مفهوماً للناس المتجمهرين هي لغة وضيعة. و من المحال أن يبقى شعب ما حراً و هو يتكلم بذلك اللسان .'و بتطور يسير ، كما هو الحال في علوم الصوتيات العامة و السماعية في هذه الأيام، فإن من الصعب، برغم ذلك، أن نتصور أن روسو أعتقد فعلاً في صحة الأطروحة التي يبدو ظاهرياً أنه يقدمها. فهذا الفصل الختامي هو في الحقيقة مهتم بعلاقة اللغات بالحكومات، وفرضية قابلية السماع هي طريقة روسو المجازية المتهكمة لفتح موضوع مسألة حرية الكلام في فرنسا في القرن الثامن عشر.

ما هو جدير بالملاحظة في معالجة روسو المختالة للموضوع، و متقدماً بذلك على زمانه إلى حد بعيد، إنه أدرك أن من الخطأ معالجة حرية الكلام على أساس كونها واحدة من أشكال الحرية المختلفة للفعل قائمة بذاتها. في هذا كان نفاذ بصيرته أعظم قيمة إلى حد بعيد ما قدمه كثير ممن جاء بعده، أولئك الذين اخترق ذلك الخطأ بالتحديد تفكيرهم حول الموضوع و أحدث فيه صدعاً. أدرك روسو حقيقة أن مسألة الحرية و اللغة برمتها مرتبطة ارتباطاً لا انفصام له مع المدى الذي تكون فيه الجماعة اللسانية(اللغوية) أيضاً مجتمعاً تواصلياً. و تقع الفترة التي كان روسو يكتب فيها في وسط مرحلة هي الغاية في التدني في أوروبا بين اختراع الطباعة، التي جعلت، من الناحية النظرية، التواصل الجماهيري الواسع ممكناً، و جعل القدرة على القراءة والكتابة ظاهرة سائدة على نطاق عالمي، التي هي من متطلبات الطباعة العملية. إن رواية هيرودوتس لتأريخه لزملائه المواطنين المتجمعين هي بالنسبة لروسو (إشارة) رمزية للشروط التي يتوق إليها التواصل في مجتمع حر. ودولة المدينة من وجهة النظر هذه هي الجماعة اللسانية المثالية. و يمكن أن يسهم كل أعضائها في التواصل العام، وهو الاحتمال الذي سيكون بخلاف ذلك معتمداً على تسامحهما المتبادل. (كان ينبغي لجمهور هيرودوتس، كما يشير روسو، أن يحافظ على الهدوء لكي يسمع) والأطروحة المضادة لهذا النموذج المثالي تتمثل بالنسبة لروسو في صورة الأكاديمي الفرنسي الذي يشق طريقه عبر مذكرة مغمغماً، غير مسموع بالنسبة للناس الذين يجلسون في الخلف. و يقتبس روسو دوكلو إلى الحد الذي يمكن أن يكون مرغوباً فيه دراسة كيف ان شخصيات، و أزياء، و اهتمامات الناس تؤثر في لغتهم'، و يقترح بطرافة أن قابلية سماع اللغة من المخاطبين تتدهور حين تحل حكومة فاشية متسلطة محل حكومة الإقناع.

ويمكن بذلك أن ينظر إلى الأكاديمي المغمغم (و في سياق المسؤوليات الخاصة المسندة إلى الأكاديمية الفرنسية بوصفها حارسة اللغة الفرنسية) على أنه صورة هزلية *لاذعة لما يحصل في التخصص اللساني* في خدمة حكومة فاشية متسلطة. فاللغة الرسمية

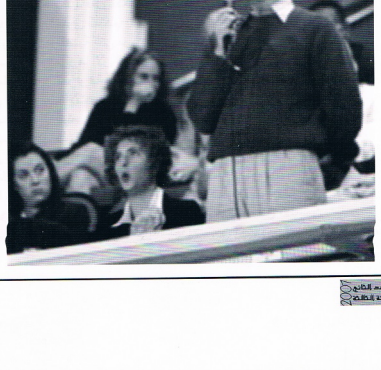

التي تجعل منها تلك الحكومة الفاشية شـفرة معتمدة و تستعملها هي من ذلك النوع الذي يجعل من المستحـيل سماعه، لغة هي بـالنتيجة عديمة الفائدة تماماً بالنسبـة للتواصل العام. و قد يفترض المرء بسـذاجة أن علاج عدم قابـلية السـماع هو بـرفع الصوت، لكن يجادل روسو، كلما كان الصراخ بالفرنسـية أعلى كان فهمها أقل:

إن واعطينا من الكهنة يعذبون أنفسهم، يحولون أنفسهم إلى كتلة من العرق أثناء الوعظ من دون أن يعرف أيُّ شخص أيَّ شيء مما قالوه. و بعد أن يرهقـوا أنفسـهم صارخين مدة سـاعة، ينهارون في الكرسـي، أنصاف موتى. و من المؤكد أن تعبهم بهذه الطريقـة لن يكون فاعلاً.

و شبيه بذلك، يزعم روسو، إذا ما كان على أي شخص أن يخطب في أهل باريس في سوق أقمشـة مكتظة فلن يكونوا أكثر حـكمة : ' إذا ما صرخ بـأعلى صوته، فسيسـمع الناس صراخه، و لكنهم لن يسـتطيعوا أن يميزوا كلمة واحدة'. و هذه الصور السـاخرة الجديرة بالملاحظة للغة التي تحـول دون التواصل بـدلاً من تجعله أكثر يسراً قـد تكون الأكثر إدهاشـاً في الأدب الأوروبـي قبـل أورويل. وهي تتعارض بشـكل ذي مغزى مهم مع المزاعم اللسانية الراسـخة التي ظهرت في القـرن الثامن عشـر المتعلقـة بـخصائص الفرنسية،لاسيما الزعم القائل انها كانت فوق كل لغات الوضوح.

ما فهمه روسو هو إنّه بالرغم من كون الكلام شكل من أشكال الفعل؛ فإن ذلك لا يقتضي أنه يمكن رد حرية الكلام إلى حرية الفعل أو أنها يمكن أن تكون أحد أنواعه الثانوية. و لكي نكون أحراراً بـالمعنى الذي يكون فيه العقل الإنساني حراً فإن إمكانية الموافقة أو المعارضة يجب أن توجد. و هذه هي الإمكانية التي تجعلها اللغـة فقط متاحة. (و من هنا فإن مسألة الحـرية الفكرية كما تظهر لمعظم أبناء الجنس البشـري لا يمكن أن تظهر لأفراد أو أجناس غير قادرة على استعمال اللغة) ولهذا السبب فإن رفض حرية الكلام، مهما كان مؤقتاً ومهما كانت أسبابـه، هو اعتداء على إنسـانية أولئك الذين حرموا منها. إذ إنه من خلال اللغة و عبـرها نكتسـب إمكانية إقـناع الآخرين بالقبـول أو الرفض أو التفكير بسلسلة كامنة غير متناهية من المعتقدات و المواقف و مسـائل الفعل. و على هذا النحـو تكون هذه الإمكانية شرطاً مسبقاً لكل الحريات الأخرى التي تشمل ضبـط سلوك أفراد المجتمع إزاء بعضهم بـعضاً؛ و ضمانها العرفي الراسـخ الجذور في أية جماعة هو وجود لغة الجماعة.

وبذلك فإن حرية الكلام هي أساس حق المشـاركة في تلك الفعاليات التواصلية المتاحـة بمقـتضى كون المرء عضواً في جماعة تواصلية، لكن هذه الحـرية، كما يقتنعنا روسو بقوة، هي مظهر كاذب يدعو للسخرية ما لم يكن ما يقال قابلاً لأن يسمع. و بعبـارة أخرى، إذا ما كان تنظيم المجتمع بطريقـة (سـواء أكان ذلك من خلال حكومة ذات نزعة مركزية تسلطية، أم لأي سبب آخر) ترفض المشـاركة الفعالة في التواصل لأقسـام كبيرة من الجماعة، فلن تعود اللغة ضماناً لحرية الكلام، و تغدو مسألة فيما إذا كان التعبـير عن وجهات النظر أمام الجمهور مباحـاً أم مقـمـوعاً عديمة الصلة بالموضوع.

وستلقي أطروحة روسو حول 'قابـلية السـماع' توكيداً مسهباً من الأحـداث اللاحقـة في السياسـة البريطانية.

ففي نهاية القرن الثامن عشر و بداية القـرن التاسـع عشر، تم رفض الاستماع إلى سلسلة من الالتماسـات مقدمة للبرلمان على خلفية أنها لم تحظ بـصوغ لغوي مناسب. و كما أشارت أوليفيا سميث في كتابها سياسـة اللغة ١٧٩١-١٨١٩ : ' لأن كلاً من حـق الانتخاب و الأفكار حول اللغة اعتمدا على مسألة من يـعُدّ قـادراً على الإسهام في الحـياة العامة، فإن هذين الأمرين كانا مرتبطين بشكل حيوي' (سميث ١٩٨٤: ٢٩-٣٠). و بالكاد يمكن أن يكون الارتباط بين حـرية الكلام وكون المرء عضواً في جماعة لِسـانية أوضح مما يظهره الموقف السياسي الذي يـؤسس مبادئ للياقة اللسـانية بوصفها معايير لحق المرء في الاسـتماع إلى صوته. فالتهديد السياسي الذي يطرحه وجود لغة عامة يواجـه برفض عموميتها، و بقصر حرية التمتع بالحـق على اللغة 'المناسبة' نتيجة لذلك.

إن الأطروحة المضادة لحـرية الكلام ليسـت هي الرقابة، لكن العزل و الحـرمان من عضوية الجماعة: إنها إنكار حق المشاركة. والانحراف العقلي النهائي في السياسة هو الزعم بأنه يمكن تبـرير مثل هذا الإنكار و أحياناً يمكن أن يكون ضرورياً كونه لخير ومصلحـة الآخرين، أو حتى لخير و مصلحة المعزولين أنفسهم. و

هذا هو التبرير 'الأخلاقي' للوائح السرية الرسمية وما يشابهها .إنه لشكل من أشكال الانحراف العقلي أيضاً كان الأكاديميون عرضة لـــه وهو ما أظهره للأسف حظر اشتراك المختصين بالحفريات الأثرية "الآركيولوجيين' من جنوب أفريقيا و ناميبيا في المؤتمر العالمي للحفريات في جامعة ساوثهامبتن في ١٩٨٦. و الاعتراض الذي تذرعوا بـــه لم يكن على الأفراد المحظورة مشاركتهم، و لا على وجهات نظرهم، سواء حول السياسة أم حول علم الحفريات. و مع ذلك فقد أنكر عليهم زملاء أكاديميون حقهم في الكلام في ملتقى مهني و يقع في صلب حقل تخصصهم الأكاديمي، وذلك لتسجيل احتجاج ضد الاتجاهات السياسية التي تتبعها حكومتا جنوب أفريقيا وناميبيا. وعلى هذا النحو فقد أضطهد البريء من أجل إزعاج المذنب. و في نطاق حرية الكلام، فإن هذه هي أخلاقيات أخذ الرهائن والإرهاب. و تبنيها من قبل الأكاديميين هو أمر بغيض بشكل خاص، كما إن من المحتمل أن يسارع مـل إلى الإشارة إلى ذلك، لأن الجامعات هي مؤسسات مرتبطة بعهد ثابت و مقرر بالعرف والقانون لموصلة البحث الحر .وهذا هو السبب في كون سيطرة الدولة على ما تدرسه الجامعات و كيف تدرسه(فيما يتعلق بموضوعات تخص الدين، و العرق، و اللغة، و التاريخ على سبيل المثال) هو واحد من أخطر التهديدات لحرية الكلام التي كان على المجتمع الغربي أن يواجهها في القرن العشرين. و لكن الجامعات سوف تكون بالكاد مؤسسات تستحق أن تنفذ إذا ما كان الأكاديميون الذين يتولون إدارتها هم من الذين يستعملون مبتهجين حرية الكلام خاصتهم لكي ينكروها على الآخرين.

و للسانيات، للسبب نفسه، لن تكون حقلاً بحثياً أكاديمياً يستحق المحافظة عليه إذا ما أستمر في التهرب من واجب التصدي لقضية حرية الكلام بتأبيد التخيل النظري المريح القائل ان عضوية الجماعة (المنسجمة) لسانيا تمنح تلقائيا الحقوق اللسانية نفسها- أو لا شيء منها- عموماً، و نسبة أي خروج على هذا الوضع العام الموسوم بالمساواة إلى تدخل العناصر الخارجية التداولية التي هي بحكم التعريف ليست لسانية. وهذه بالتأكيد طريقة واحدة من طرق أمثلة (جعل الأمر مثالياً) المشكلة خارج نطاق الوجود، أو في الأقل خارج نطاق اللسانيات، و تكمن الصعوبة في أنها تترك

الباحث اللساني دونما موقف يمكنه من تقديم أي توضيح جدير بالقبول و التصديق ظاهرياً لتلك الصيغة المحددة للسلوك الاجتماعي اللفظي الواضح الذي يسمى تقليدياً " باللغة".

إن الحرية هي أساس مسألة حقوق و مسؤوليات. و الممارسة الاجتماعية لكل القدرات و المهارات مشروطة بالحقوق و المسؤوليات، الفردية منها و الجماعية؛ وذلك لأن كل سلوك اجتماعي يتضمن تعاملات، في الأقل، بين شخص واحد و آخر أو آخرين. و بما إن اللغة هي البراعة الاجتماعية الأولى دونما منازع، فإن من العبث الافتراض جدلاً بكونها استثناءً بطريقة أو بأخرى. و مع ذلك فإن هذا هو بالتحديد العبث المتأصل في أية لسانيات تعرّف الكلام من دون الإشارة إلى مثل هذه المسائل، غير مدركة أن استبعادها يرتد بالكلام إلى لغو صوتي. لأنه ليس من الواضح فيما إذا كان من المعقولّ القول ان أية براعة اجتماعية تكتسب و تمارس بكفاءة من قبل أشخاص هم ببساطة لا يفهمون الحقوق و المسؤوليات المتشابكة و المتضمنة. و ذلك الفهم هو – بحكم التعريف– جزء من البراعة، بل إنه ليس جزءاً من البراعة فحسب، لكنه الجزء الحاسم الذي يفصل البراعة الاجتماعية عن الخبرة و المعرفة التقنية؛ ولهذا السبب فإن طبيب معسكر الاعتقال الذي ينفذ تجارب لا إنسانية على النزلاء هو مدان عن حق بصفته طبيباً، حتى حين يكون مستوى الخبرة و المعرفة المُصَمَّنة في التجارب عالياً.

إن التسليم بأن المجتمعات تختلف بصدد ما تعترف به من الحقوق و المسؤوليات بوصفها اعتبارات لصيغ السلوك الاجتماعي المتباينة، لا يمثل ترخيصاً بتجاهل مسألة الحقوق و المسؤوليات عند محاولة تعريف صيغة سلوك اجتماعي شائعة في مختلف المجتمعات.

وحتى أن الأمر سيكون أقل ترخيصاً عند ضمان القول بالنسبية التي تتعامل مع حرية الكلام على أنها ذات صلة بالممارسات الاجتماعية الأخرى.

والأمر على العكس إلى حد أن مجتمعاً يؤسس حقوقاً و مسؤوليات تحدد حرية الكلام هو ليس مجتمعاً حراً على الإطلاق، كون السعي وراء الحريات الأخرى أمراً مشروطاً بحرية الكلام. ومفهوم المجتمع الذي سمح بكل الحريات الأخرى باستثناء حرية الكلام هو مفهوم متناقض مع ذاته.

المصادر المشار إليها في متن الدراسة

Cairns, H. and Cairns, C.(1976) Psycholinguistics, New york: Holt, Rinehart & Winston.

Chafe, W. L. (1970) Meaning and the Structure of the Language, Chicago: University of Chicago Press.

Denes, P. B., and Pinson, E. N.(1973) The Speech Chain,2nd edn, Garden City, NY: Anchor.

Katz, J. J.(1966) The Philosophy of Language, New York: Harper and & Row.

Mill, J. S. (1859) On Liberty, London , ed. G. Himmelfarb, 1974, Harmondsworth: Penguin.

Rousseau, J. J.(1968) Essai sur l origne des langues, ed. C. Porset, Bordeaux: Ducros.

Saussure, F. de (1916) Cours de la linguistique g?n?rale, ed. C. Bally and A. Sechahye, with the collaboration of A. Riedinger, Lausanne and Paris:Payot.

Smith, O. (1984) The Politics of Language 1791-1819, Oxford, Clarendon.

مياه الحياة

الصابئة المندائيون في العراق

(الأولُ المنفرد من عوالم النور الثرية السامي الذي يعلو على كل شيء أسبح لك ربي بقلب نقي طاهر الحي العظيم المتميز عن عوالم النور الغني العلي فوق كل الأعمال الشفاء والظفر وهداية الجنان وهداية السمع واللسان والرحمة والغفران آمين يا ربنا يا رب العالمين) كنزا ربا.

باسم الحي العظيم

ماجد ثاني الزهيري

"انا اصتبغتا بصبغتك ربي فاشهد"

للصابئة المندائيين تسميات عديدة لمسمّى ويقصد به(الصبـــة) وهم الفئة الدينية التي يعيش معظم أفرادها في مناطق العراق الجنوبية والوسطى وجنوب إيران، وقد اختلف الباحثون في الشرق والغرب قديما وحديثا في نسبة هذه الكلمة واشتقاقها، ولعلّ أكثر الشروح انتشارا هو ما جاء به مفسروا القرآن الكريم حيث تعرضوا لتفسير الآيات الثلاث؛ فذهبوا إلى إن كلمة صابئة مشتقة من الفعل صبأ، إذ يقال للمرء الذي خرج من دين إلى آخر كما تصبـــأ النجوم أيْ تخرج من مطالعها بعد أن غشيتها الظلمات التي تحدد فيها ذكر الصابئة(بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل عملا صالحا فلهم أجرهم عند ربهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، وفي سورة المائدة (بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وفي سورة الحج اية ١٧(بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) إن ورود كلمة الصابئين في الآيات الكريمة المذكورة أعلاه لتشير إلى إن الصابئة المندائيين في عهد الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا فئة على دين خاص أسوة بالأديان الموحدة الأخرى كاليهود والنصارى، وإن للكلمة مدلولا دينيا مفهوما من قبل القوم الذين من أجلهم أُنزل القرآن الكريم، وقد تناول كتاب التراث من لغويين ومفسرين وفقهاء اجمعوا على أن اشتقاق هذه الكلمة من الجذر المهموز صبأ ، وكتبوا أيضا إن الصبوء يعني الخروج من دين إلى دين آخر، وذكروا ان العرب كانت تطلق على الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) بالصابئ؛ لأنه خرج من دين قريش إلى دين التوحيد ألا وهو الدين الإسلامي الحنيف.

صبا أي صبغ، وهي كلمة واردة في اللغة الأكدية صبيو وصبيوتوم صبا صبغ غمس في الماء وارتمس مصبوتا أي صبغ صباغة مصطبا أي مصطبغ مصبوغ متعمد.

إن الكلمة العربية التي تناظر صبأ الآرامية المندائية لفظا ومعنى هي كلمة صبغ التي تحمل المعنى المادي للارتماس أو الغمس في الماء كما إنها تحمل في الوقت نفسه معنى دينيا هو التحول أو الدخول في دين جديد واكتساب هويته، وقد ورد في لسان العرب تحت

موضوع صبغ اللقمة بصبغتها صبغا دهنا وغمسها، وكل ما غمس، فقد صبغ، وقال الازهري وسمت النصارى أولادهم في الماء صبغا تغمسهم إياهم فيه. والصبغ في كلام العرب التغيّر وصبغة الله كما وردت في القرآن الكريم(ومن أحسن من الله صبغة) ربما جاءت هذه الآية لتكرس، وتؤكد ما جاء في صحف أهل الكتاب الأولى من صلة واضحة لمفهوم الصبغة وعلى النحو الذي جاء به الكنزا اربا/ الوصايا/ التسبيح الثاني/ يمين حيث ذكر ما نصه(اذكروا الله وسبحوه كثيرا هيئوا يودنا واصتبغوا وأصبغوا نفوسكم بالصبغة التي انزلها عليكم ربكم من أكوان النور التي أصطبغ بها كل الكاملين المؤمنين)، وتعني دينه، ويقال أصله، والصبغة الشريعة، والخلقة، وقيل هي كلما تقرب إلى الله ويرى القارئ إن التناظر واضح بين الكلمة الآرامية المندائية صبا والكلمتين العربيتين صباً وصبغ،إذ إن الكلمات التي تحوي مدلولا دينيا واحدا هو التغيير أو التحول من دين إلى دين آخر يمكن وضعها على الصورة التالية صباً كلمة عربية تعني خروج الفرد من دين إلى دين آخر، وصباً الرجل أي صار صابئا. صبغ كلمة عربية تعني الغمس والتغيير ولها مدلول ديني، هو التطهير الجسدي والروحي والدخول في دين جديد، صبا كلمة آرامية تعني الغمس والتغيير ولها عند الصابئة مفهوم ديني، وهو التطهير، وهو الختام الروحي، ولا بد لكل صابئي ان يدخل إلى دين المندائية مع ذكر أسم الله صبغة وشريعة وعلامة تميزه عن بقية الأديان، وإني اعتقد بقوة من أن الجانب الاسراري أو الباطني لكلمة صبغ أو صبا الآرامية ربما يعود إلى الجذر(نصاب زيوا) أي غرس النور، وإن حرف النون الظاهر على الكلمة يصاب يأتي للمضارع فيصبح صابه أي غرس أو غرس وعم زيوا يصبح المعنى غرس النور، فإذا كانت عملية الغرس الإلهية يراد منها الخلق أو الإبقاء بالشيء أو جعله واقعا محسوسا؛ فإن زيوا النور التي طالما تعني العقل والنفس؛ فإن الأمر يعود على المعنى الذي يشمل الخلق العاقل الذي يكتسب الشرط اللازم لصفة الحياة لذلك، فإن التناظر العملي والطقسي للصباغة بعملية الغرس، يأتي هو الآخر ليشمل على ذات المعنى بوساطة خلق النفس مجددا وزرع النور فيها بواسطة ماء يردنا الحي الجاري، العملية التي يطلق عليها مصبنا أو صباغا أو نعميد، ولا شك فإن جميع الصبغ التي تطورت من هذه

اللفظة(صبا) إلى اللغة العربية تشـير إلى معنى الولادة والظهور، فعند قولنا صباح فالصبح ولادة جديدة وعند قولنا صبـا النجم؛ فهي أيْ النجوم خارجه من مطالعها بعدما غشيتها الظلمات؛ فهي إذن كمن يخرج من الموت إلى الحياة، كذلك؛ فإن قولنا صبا أو صبـي تعني النمو والتقادم بلا حياة عندما تقصد الصبيان أو الغلمان وصبا ويصبـو ليعلم أو يعرف خبـرا ويصب الماء يورده فيرويه وصب الزاد، وغير هذه المشتقـات من الأصل السامي الآرامي المندائي(نصاب) الشـيء الكثير مما درجت عليه اللغة العربـية بـعد التطورات الكبـيرة والانزياحـات التي أدت إلى ابـتعادها عن مصادرها السامية القديمة إن لم أقل الأولى.

الآرامي دا أي عرف مندا أي المعرفة. أما حرف الياء، فهو للنسب كقـولنا مندائي أي المعرفي أو العارف أو العرفاني، وهي تسـمية أو إصطلاح صوفي في الديانة المندائية، ومن هنا جاء الفعل العربـي- ورا- يدري- فهو عارف يعرف عرف، ومنها نادى ومنادى ونـدوة ودار الندوة أي دار المعرفة والحكمة، كذلك ديوان مأوى الوجهاء والحـكماء، هذه بـعض الاشتقاقـات المتطورة عن جذورها السامية الآرامية المندائية، وعن الفعل دا- الذي مهن- دان- أي عرف- وليـس لـدان علاقة بالمديونية، كما يذهب بـعض فقـهاء الإسـلام والمفسرين، بخلاف كلمة الصابئة للأسباب الآتية:-

1-إن كلمة مندا والمفردات التي تتعلق بها هي مفردات تستعمل استعمالا دينيا ذا دلالة مجردة غير مصحوبـة بشعائر أو مراسيم معينة بخلاف كلمة صبا حـيث تأتي مصحوبة بشعيرة الصباغة والتعميد.

2-إن كلمة مندا ليس لها مفردات تناظرها بالعربـية، ولهذا تكون التسمية للصابئة المندائيين هي المصطبـغ أي المتطهر روحيا وجسديا ثم العالم بـدين الله حـيث تشير كلمة مندا إلى مدلول المعرفة؛ وهي تسمية لعقيدة دينية جاءت تعاليمها مكتوبـة في تأريخ الصابـئة المندائيين باللغة الآرامية الشرقية.

إن كل من كتب عن مواطن الصابـئة وتأريخ وجودهم جاءت كتابته مطابقة لما ورد في كتب الصابـئة الدينية بهذا الصدد، وكلها تجمع على أن الصابئي كان موجودا

في المنطقة العربية في حوض وادي الأردن وفلسطين وحوض وادي الرافدين قبل ظهور الإسلام الحنيف، وقد استمر بعده، وإن فئات من معتنقي هذا الدين كانوا يسكنون مناطق مختلفة من العالم منذ القدم، حيث سكن المندائيون الصابئة بلدة الطيب، وإن الطيب من مكارة نبي الله شيث بن آدم وما زال أهلها على ملة شيث بن آدم، وهو من مذهب الصابئة إلى أن جاء الإسلام (معجم البلدان ياقوت الحموي) وأيد مقاله أبن النديم بشأن وجود الصابئة في حران، كذلك كتب الاصطخري في(٣٤٠هـ) عن قدم وجود الصابئة في سوريا، وذكر أبن خلدون قدم الصابئة في أرض كنعان وكتب أبن العبري في تأريخه عن الصابئة: إنهم أخذوا دينهم عن آدم (سلام الله عليه) وشيث وإدريس وصابئ أبن إدريس (عليهم السلام) الذي إليه ينتسبون، وذكر عنهم قولهم أن اهرامات مصر، إنما هي قبور لهؤلاء الأشخاص الثلاثة (تأريخ أبن العربي الجزء الأول صفحة ٧٠-٧١) وما تؤكده الكتب الدينية المندائية في وجودهم في أماكن مختلفة من وادي الرافدين وفي أماكن مثل الطيب.

وعثر فيها على قطع نقود تحمل كتابة مندائية تعود إلى سنة خمسين ومائة للميلاد، وعلى نقوش لأدعية مندائية تعود إلى القرن الخامس أو السادس للميلاد، ومن أهم الكتب التي تحدثت عن الصابئة هو كتاب الملل والنحل للشهرستاني(٥٤٨هـ) الذي ذكر أن الفرق في زمان إبراهيم الخليل (عليه السلام) راجعة إلى صنفين اثنين أحدهما الصابئة، والثاني الحنفاء، إذاً الصابئة طائفة من القبائل الآرامية، وآراميون كما يذكر التأريخ ثالث فرع ثبت في شجرة الأمم السامية، وكان أول ذكر مهم في نصوص(سفينية) ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وهم يذكرون فيها على أنهم منتشرون في الصحراء الواقعة غربا ما بين النهرين، ونجد في الجنوب، وحوض الأردن، وحدود الشام من الشمال، ونهر الفرات في الشرق، وخليج العقبة في الغرب.

وإن من يقرأ كتب الصابئة المندائيين لا يجد فيها، ان أصحاب هذه الطائفة قد اهتموا بالتأريخ أو كتبوا شيئا عن مسيرتهم وحياتهم واستقلالهم، وإن كل ما نعرفه أو نقرأه من نتف أو مقتطفات تأريخية هنا وهناك قصيرة في الكتب الدينية لا تشبع من جوع. وتروي بعض المصادر الصابئية أنهم حشروا مع قوم فرعون، وتعقبوا اليهود الفارين مع موسى، وقد غرق قسم منهم في البحر الأحمر، وإن الناجيين منهم سافروا شمالا، وسكنوا في أعالي الفرات، وفي حضانة كوثيا حران مستقر بعض أسلافهم الأوائل. وإن اليهود هاجموهم، وقتلوا عددا كبيرا، حيث كانوا يسكنون القدس، ونزح الباقون إلى جبال ميديا في حران، وكان ذلك قبل ميلاد السيد المسيح (عليه السلام) بمئة عام، ثم بعد وفاة المسيح يحيى (عليه السلام) بسبعين عاما. هاجم اليهود الصابئة مرة أخرى؛ فهجروا اورشليم، وسكنوا ضفاف دجلة والفرات خصوصا في بغداد وطيب مائه والبصرة والناصرية وكوخ سيانة أي نهر الكركة.

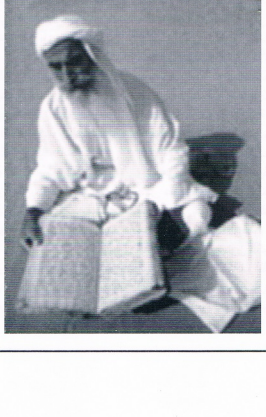

لغة الصابئة

يقول الدكتور لفنسون (تطلق كلمة لغات سامية على جملة من اللغات التي كانت شائعة منذ أزمان بعيدة في بلاد آسيا وأفريقيا سواء منها ما عفت آثاره وما لا يزال باقيا إلى الآن) المندائية هي أحدى اللغات الآرامية التي قسمها المستشرقون إلى شرقية، وتشمل لهجات بلاد العراق الجنوبية والشمالية، وثانية، اللهجات الآرامية الغربية في سوريا وفلسطين وطور سيناء والمندائية تابعة للكتلة الشرقية، وقد لوحظ إنها خالصة من شوائب العبرية واليونانية.

والحروف المندائية ٢٢ صورة أي حرف، تبدأ بحروف الألف، وتنتهي به دلالة على أن الأشياء تعود من حيث بدأت إلى أصلها الأول، وإن البدء والانتهاء واحد كامل لا نهائي، وهي أبجد هوز حطي كلم صعفص قرشت ويضاف لها حرفان مكرران هما اد و آ، وبذلك ينتصل آخرها بأولها، وهي اللغة التي وردت بها المخطوطات الصابئية وعليه؛ فأن التعاليم والصلوات والتراتيل والأدعية الدينية كلها واردة بهذه اللغة، ويؤمن أتباعها من الصابئة المندائيين إن الله سبحانه أتى العلم آدم رأس البشرية؛ فعرف ربه، وعرف نفسه، وقرأ الأبجدية الأولى(اكدابا). وقد كان الأمر كذلك بالنسبة في المختارين المصطفين من أبناء آدم وذريته، الذين كانوا أنبياء ومعلمين، ومنهم يحيى بن زكريا (عليه السلام) الذي جاءه العلم صبيا، فقرأ الأبجدية، وهو أبن سبع سنين؛ فكان معلما ورسولا قبلها كتب الصابئة عقيدة الصابئة المندائيين.

جاء في الآية ــ من سورة البقرة قوله تعالى(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وعليه فالمفهوم من الآية الكريمة أنفة الذكر أنه قد وجد وقت نزول القرآن الكريم خمسة أديان موحدة، وهي اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة والزرادشية، وكان أمر الفرق الثلاث الأولى معلوما وأصول أديانهم معروفة لكثرة معتنقيها وانتشارهم في الآفاق، وما كتب عنهم، وبما دون حتى امتلأت المكتبات، أما الفرقة الرابعة الصابئة، فقد جمد علماؤهم بعد تصادمهم مع اليهود مرة ومع المسيحية مرة والزرادشية مرة أخرى؛ فانكمشت على نفسها من باب التقية، وسترت معتقداتها حتى ظن الباحثون إنها اندثرت، فقل الطلب في السؤال عنها، وعندما ضعف شأن الصابئة وأهمل أمرهم وقل عددهم أنكر عليهم الكثير من الباحثين والمؤرخين حتى التوحيد في عقيدتهم، واختلفوا معهم في كل شيء تقريبا ما أدى إلى تباين الآراء، وتنوع الظنون فيما يعبدون هذا يقول: إنهم يعبدون الكواكب والنجوم: وهذا يقول إنهم يعبدون الملائكة، وذلك يقول: إنهم قوم بين المجوس واليهود والنصارى، وغير هؤلاء يقول، أنهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون، وآخر يقول: أهل دين

كانوا بجزيرة (الموصل) يقولون لا إله إلا الله.
وترجع كثرة الاختلافات بشأن حقيقة الصابئة إلى أسباب عديدة:

1- إن رجال الدين الصابئيين في السابق لا يقرون علانية الدين؛ لأن ذلك يتعارض وسلطنيته بحسب اعتقادهم.

2- قلة من يعرف لغة كتبهم؛ لأنها مكتوبة باللهجة المندائية.

3- إنطواء الصابئة على أنفسهم وعدم مخالطتهم لغيرهم.

4- كون ديانتهم غير تبشيرية، وقد أغلق التبشير فيها عام ٧٠ ميلادية بعد المذبحة الرهيبة التي ارتكبها اليهود ضد علماء دينهم بسبب أحدى اليهوديات(مريامي) التي اعتنقت الديانة الصابئية، وأيا كان الأمر، فهم واقعون وإلى الأبد تحت طائلة الاستئصال والخوف منذ أزمان بعيدة، وربما تقدر بمقدار الخلافات التي قامت بسبب الحاجة الطبيعية إلى نشوء الفرق والمذاهب والأديان المنشقة عن الديانة الصابئية نفسها (كما نوه إلى ذلك المسعودي والشهرستاني وربما غيرهم)، وربما وقعت بينهم وبين المذاهب المنشقة هذه خصومات كالتي وقعت مع الاحناف، الذين كانوا يتوسمون تسييس وجودهم، وتدويل أوطانهم على غير ما ينسجم مع مبادئ الصابئة المندائيين.

*جوهر العقيدة الصابئية المندائية

ينحصر جوهر العقيدة المندائية الصابئية في التوحيد قبل كل شيء، وإن الدين الصابئي يقوم على فكرة إن الله حي انبعث من ذاته وانبعثت الحياة من لدنه، والتوحيد هو اعتقاد(إن الله واحد لا شريك له) وسمي هذا العلم به تسمية له لأهم أجزائه، وهو إثبات للوحدة لله في الذات، والفعل في خلقة الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد كما جاء في كتابه المقدس كنزا ربا أو صحف آدم (باسم الحي العظيم هو الملك منذ الأزل ثابت عرشه عظيم ملكوته لا أب له ولا ولد ولا يشاركه ملكه أحد مبارك هو في كل زمان مسبح وهو في كل زمان موجود منذ القدم باقي إلى الأبد) ورد اسم الله في كنزا ربا في أسماء عديدة ويتكرر بشكل كبير بصفات أربع، وهي الحي العظيم الحق الكبير) فالمسلمون جعلوا الرحمة صفة الله الأولى يطلبونها في مستهل كل عمل. أما- نحن الصابئة المندائيين- فنجعل الحياة صفة دائمة نذكرها في مستهل كل عمل وحركة، فالحياة الأزلية هي الفارق الأكبر بين الله والبشر، وهي في النهاية القاسم المشترك بجميع حيواتها بسطا وقبضا.

وجاء في كنزا ربا المقدس(الحمد لك مسبحا وميركا ومعظما ذي الوقار والجلال الله ربي العلي سبحانه ملك النور السامي الحول الشامل الذي لا حدود لقدرته النور البهي والضياء الساطع الذي لا ينضب الرؤوف التواب الغفور الرحيم منقذ جميع المؤمنين وناصر كل الطيبين العزيز الحكيم العليم البصير العارف الذي على كل شيء قدير رب عوالم النور كلها للعلياء والوسطى والسفلى ذو السيماء العظيم الموقر الذي لا يُرى ولا يُحد ولا شريك له لملكه ولا منازع له في سلطانه من يعتمد عليه لا يخذل ومن يذكر اسمه بألحق لا يخيب ومن يتوكل عليه أبدا لا يذل أنه رب الملائكة جميعا لا وجود بدونه وما من شيء لولاه أزلي ليس له بداية وابدي ليس له نهاية نوره يضيء وبهاؤه يسطع على جميع المخلوقات والملائكة على السواء إنهم يعبدون الرب ويسبحون له ويعترفون أمامه خاشعين أنه الرب العلي ملك النور السامي الذي لا يوجد قياس لسطوعه ولا لنوره حساب ولا لبهائه من حدود وهو الروعة بذاتها الضياء بجلاله العظمة بكمالها الحياة برمتها الوفاء بنقاوته المحبة بنفسها هو الرؤوف الغفور الشامل العيون التي لا تنام ذو السيماء البهيج والوجه الجميل المبارك والعقل الفطن أنه المعرفة والوحي وكل أسماء العظمة).

هذا غيض من فيض وومض من ومضات تملأ كتابهم المقدس بأسماء الحي العظيم التي أعطاها جبريل الرسول إلى آدم رأس الذرية.

وصف الجنة(عالم النور) إنه عالم أبدي لا نهاية له عالم البهاء والنور بلا ظلمات عالم الرحمة بدون عصيان عالم العدل بغير فوضى عالم العطور الزكية عالم الحياة الأبدية عالم الماء الحي عالم الطيبة لا السوء إنه عالم الثقة والإيمان.

النبوة

تشير الكتابات المندائية إلى أن المعرفة والعلم الرباني(منذا اد هيي) الملاك المقرب من الحي القيوم إنما يأتيه عباده المختارون الصادقون. أما حيا وأما إلهاما، وذلك هو الصوت الحي الأقدم، وأما فيضا سماويا، وهو التجلي وبوساطته تأتي رسل اثريين

نورانيين، وإن الأشخاص المختارين الملهمين ينقلون ما تقوله سمن علم إلى الناس، فيأخذه عنهم الصالحون ويطبعونه، وكلمة مندا كما قلنا في البداية تعني المعرفة العليا التي تنير ضمير الإنسان أو ما يصطلح عليه بالعلم الإلهي عند أهل التصوف، حيث يقال ضميري أستنار علما، وتضاف هذه الكلمات إلى اسم الله تعالى وتخصص دلالاتها بالعلم الإلهي، وتلك نقطة أساسية؛ إذ تدور حول هبوط النسمة السماوية المباركة نسمة الحياة(النفس) (نشمثا باللغة المندائية) إلى جسد آدم الأرضي ثم تحررها من مادية الجسد بوساطة المعرفة أو العلم الرباني هذا الذي

ينور ضمير الإنسان، ويهديه إلى سبيل الحق والخير والفضيلة؛ فإذا أتم الإنسان قدره على الأرض تحررت نفسه التي عرفت الإيمان الحق، واتحدت بالكون الأعظم الخالد.

إن أول رسول جاء إلى آدم هو جبرائيل الرسول حيث يقول النص من الكتاب المقدس للمندائيين(جلست إليه وعلمته ما حملني ربي من علم وحكمة وتسبيح) وهناك نص آخر يقول(منور منور السر الرباني الأعظم الأجل الذي منه انبسط وتبين وتنزل العلم الإلهي الذي بواسطته أدرك الناس وجود الله العظيم المتفرد، إن الصوت الأقدم الذي أتى آدم هو أول دين عرفته البشرية ودان به الصابئة المندائيون والنص هذا هو الصوت الأقدم الذي جاء إلى آدم أبي البشرية فسجد وسبح لملك الأنوار العلي الله ربنا جل شأنه).

جاء رسول العلم إلى شيث(أي شيت) بن آدم وجاء رسول سماوي إلى شوم برنو (أي سام بن نوح) حيث قام يدعو الناس إلى الحق والإيمان.

أما رسالة النبي يحيى بن زكريا (عليه السلام)؛ فإنها أعظم رسالة جاءت بعد آدم وأولاده.

ومن كتب الصابئة المندائيين كتاب الكنزا ربا المقدس وهو يعدّ الكتاب الأول الذي يتصدر صحف آدم المباركة، وهو الكتاب الرئيس الذي أعطى لآدم و يحتوي على جهتين – يمين ويسار– أي نازل وصاعد. (حين خلق وعم نوره الدنيا نهض ووقف وقال أنا ملك بلا نظير أنا سيد كل الدنيا تجول حتى استقر على جبل وحدق أمامه فرأى ساقية تجري تحت الجبل حينها أنكفأ على وجهه ثم قال إذا لم يكن هناك من هو أعظم مني وأقوى فمن أين إذن أتت هذه المياه المنورة التي تجري لا حصر لها ولا عد، لقد علمت الآن بوجود من هو أعظم مني وها أنا أصلي وأدعو أن اقتدي به وأن أتخذه رفيقا لي وجاء صوت من الأعلى فانكفأ على وجهه فاقد القوة حتى أتاه ملاك مزكي وبيده كتاب استلم آدم الكتاب بيده اليمنى وقبله ثلاثمائة وستون مرة مغتبطا به وركع أمام الملاك ثم نهض ففهم الأبجدية وأدرك الإيمان الصحيح).

يحتوي كنزا ربا في المقدمة على:

1- صفات الخالق ووصف عالم النور وكيفية خلق آدم (عليه السلام) من الطين، وكيف ألقيت فيه النفس، وخلق حواء من الطينة نفسها وألقيت بها النفس أيضا. كما ويذكر الوصايا والتعاليم، وكيفية خلق الكون، وتجمد الأرض، وخلق الكواكب والأجرام السماوية الأخرى من الغبار الكوني، وفي القسم الأيسر منه روحاني خالص، وهو مختص بالموت وعروج النفس إلى عالم الأنوار والمحطات التي تمر بها.

2- دراسة اد يهيا أي(تعاليم أو دروس يحيى عليه السلام) وهو يحتوي على تعاليم ووصايا وأحكام تابعة ومستجدة في تعاليمها للدين المندائي.

3- كتاب الأنفس وهو مختص بعروج النفس إلى عالم الأنوار.

4-ديوان اباثر (أي ديوان أبي الاثري)، وهو مختص بالمحطات أو المطهرات التي تمر بها النفس ونوع العقاب الذي يستحقه الإنسان تبعا لما قامت به أعماله

٥–ديوان ألف و١٢ سؤالا(أي ترسر الفشياه) مختص بالطقوس الدينية والعلاج في حالة الخروج عن النواميس الدينية.

6-الفرائض والشعائر الدينية:

أ.الاغتسال ويسمى الطهارة الصغرى وأسبابها:

1- من الميت.
2- مس.
3- الجنابة.
4- التقرب من فراش الزوجية.
5- مس المرأة الوالدة، ويتم قبل ذلك الذبح أو إجراء أي طقس ديني.

ب. الوضوء قبل أي عمل ديني.

ج. الصباغة وتسمى الطهارة الكبرى أو (التعميد) كما يصطلح عليه النصارى.

د. الصلاة أو البراقة(البركة المباركة) (باسم الحي العظيم علمهم الصلاة يقيمونها مسبحين لملك النور السامي ثلاث مرات بالنهار ومرتين بالليل لا تسجدوا للشيطان ولا تعبدوا الأصنام والأوثان ومن يسجد الشيطان مصيره النار بئس المنتهى خالداً فيها إلى يوم الدين) يسبق الصلاة الرشامة أي الوضوء وهو ترسيم كل أعضاء الجسم بالماء الجاري مع ذكر البوث أي(آيات) لكل جزء.

مبطلات الوضوء

خروج الدم، الريح، الضحك، البكاء، لمس أية نجاسة.

شروط الصلاة

أن يكون الشخص نظيفاً جسدياً غير مجنب أو أصابه نجس ماء، مرتدياً البياض، حافي القدمين، واضعاً غطاء أبيض على رأسه.

الصوم

جاء في كتابه المقدس صوموا الصوم الكبير صوم القلب والعقل والضمير فلا تكسروا حتى تفارقوا هذه الدنيا والصوم بنوعين:-

1- الصوم الكبير: وهو صوم الجوارح عن الإتيان ببـاطلة أو فحشاء منذ الصغر وحتى الممات صوم الركب عن السجود للشيطان ومعاشرة أزواج الآخرين صوم العين صوم الأذن صوم اليد صوم الأقدام.. الخ.

2- الصوم الصغير: هو الامتناع عن أكل كل شيء ذي روح مدة ستة وثلاثين يوم متفرقة.

الصدقة

(طوبى لمن وهب فإنه لمأجور طوبى لمن كسا فسيُكسى اردية من نور هبوا، الخبز والماء والمأوى لبني البشر).

تعدّ الصدقة من أهم الأسس التي تقوم عليها العقيدة الصابئة؛ إذ لا خلاص للنفس من المطهرات ومراجل النار لمن لم يعط الصدقة وعندها يكون الشخص كمثل شخص احتجَزه قاطعوا الطريق، فافتدى نفسه بالصدقة، وتعني الاعتراف بفضل الواهب الأعظم ومحاولة التقرب إليه والإقتداء به وعلى الفرد أن يقدمها ابتغاء وجه الله تعالى وطلبا للأجر وغفران الخطايا وأن تقدسرا إن وهبتم صدقة فلا تجاهروا وإن وهبتم بيمينكم فلا تعلم يساركم حتى لا تفسدوها بالتشهير.

- وما جاء عن الصدقة أيضا(إن الدنيا ستزول وأعمالها تدمر وستدعى النفس للمثول من كل ألف يصعد واهبو الأجر والصدقة هم الصاعدون).
- يا أصفيائي الله وحده والشر لا تقربوه والصدقة أعطوها فمن لم يستطع فليؤد نصفها وسأحسبها له كاملة في أرض النور.

الصباغة(من وسم يوسم الحي وذكر إسم ملك النور عليه ثم ثبت وتمسك بصبغته عمل صالحا، فلن يؤخره مؤخر يوم الحساب).

وتعدّ الصباغة ولادة روحية أخرى أي الارتماس بالماء الجاري مع ذكر اسم الله بالبوث(الآيات) والأدعية والصلوات، فقد جاء في نص كتابنا المقدس اصبغوا أنفسكم بالصبغة الحية التي أنزلها عليكم ربكم من أكوام النور التي أصطبغ بها الكاملون المؤمنون.

فالصباغة والتعميد هي:

1-دخول الفرد للديانة المندائية.

2-هو طلب الغفران من الخطايا.

3-الصباغة هي التوبة الصادقة؛ لأن الفرد يعطي فيها العهد، ويأخذ منه العهد بواسطة المصافحة بالكف اليمين.

4-الصباغة طهارة روحانية وجسدية معا.

5-هي التحول من اليسار المظلم الذي يمثل الخطيئة والتحول إلى اليمين الذي يرمز على النور وهي وحدة الإنسان بكل مكونات الجسد الروح النفس.

عقيدة الموت

يؤمن الصابئة المندائيون بأن الحياة الدنيا هي الموت وحياة الآخرة هي الحياة المطلقة؛ إذ ترى أن كل المندائيين منذ نشأتهم الأولى يعملون على التقرب لله جل شأنه بأداء الاعمال الصالحة، وإن الجسد هو وعاء النفس التي هي نسمة من ذات الله جل شأنه وتعالى عندما جبّل آدم من الطين جلبوا النفس من بيت الأنفس ثلاثة اثرى(أي الملائكة) رفضت النفس أول الأمر الدخول في الجسد، وطلبت سلاحا تحارب به الشر، وجاء في أحد النصوص اسم الحي العظيم(بسم الحي العظيم أيها الصالح السني يا رسول جميع المصابيح أن كنت تريدني أن أحل هذا الوعاء فهبني سلاحا فسيتكاثر حولي الأعداء"الشياطين).

(يا نشمثا الحي الحرة أي سلاح تبتغين أمضي من السلاح الذي تحملين سلاح الناصورائية الكلمات الصادقة الحية من أجلك رفعت السماء وعلقت فيها الكواكب من أجلك كشفت الأرض وامتلأت أنهارا ومن أجلك أشرقت الشمس وأضاء القمر وخلقت الرياح الأربع ومن أجلك الماء جرى يا نشمثا سكبت الحكمة في قلبك لتسمين وتذكرين ربك سيمر زمان ويحين الأوان السنين تمر كالظلال وتتخاطف وتسير الفرح يزول والغناء يحول الأغنياء يخرجون من غناهم والأسياد من ممالكهم يذهبون للنار فيحترقون فسوف نزول المعمورة وتعودين إلى بيتك أيتها النفس الحزينة بقوة الحي وقدرته سرت إلى الجسد ودخلت فيه فصرت

قرينته).
فعليه يعتقد المندائيون أن النفس دخلت إلى جسد آدم نقية نظيفة طاهرة، فعليه أن تخرج من جسد نظيف طاهر لذا ترى أن الصابئة يغسلون المحتضر أو من دنى اجله بالماء الجاري النظيف ويلبسونه الكفن ويوجهونه باتجاه الشمال إلى أن يموت، ولا يجوز صب الماء على الميت؛ لأن عينيه لم ترَ النور أبدا بهذه الفعلة ذلك لأنه لا جدوى من طهارة النفس بعد غيابها أو انفصالها عن الجسد.
ولمسيرة النفس بعد الوفاة إلى عالمها الثاني طقوس خاصة دقيقة يجب إتباعها لتنال النفس شيئا من راحتها الأبدية؛ فتطهير الجسد بالماء الجاري كما قلنا وتكفينها ثم مراسيم رفع الجنازة وحفر القبر والدفن كلها مراسيم تجري بقراءة أدعية خاصة. كما إن للمطعام المقدس الذي يؤكل على نفس المتوفى مدة خمس وأربعين يوماً شروط خاصة تتخللها قراءات ومراسيم تيسر للنفس عروجها وتكاملها بالطهارة؛ فإن الصلوات والأدعية والقراءات المقدسة هي مراسيم تفيد روح المتوفى، كما في كل الأديان للموحدة الأخرى.

الزواج

يعد الدين الصابئي المرأة نصف الرجل أو أكثر إذ إن المواليد تسمى بأسماء الأمهات وتوصي الديانة الصابئية بالزواج، وتنهي عن العزوبية بما في ذلك رجال الدين وهناك من النصوص ما يقول:
بسم الحي العظيم(وأمرنا أن اتخذوا لأنفسكم أزواجا لتعمر بكم الدنيا وتكبر ولا ينفصل بعضكم عن بعض حتى تنتهي أعماركم ربوا أبناءكم وهذبوهم واغرسوا في نفوسهم الإيمان أنّ من لم يرشد أولاده ولم يعلمهم يحاسبه الله ومن سعى لهداية أولاده ولم يهتدوا يحاسبهم الله).

شروط الزواج

1- أن يكونا صابئين مع وجود موافقة الطرفين (العروس والعريس) ودون إكراه.
2- فحص عذرية الفتاة من قبل النساء المتخصصات
3-إحضار الوكيل أو الأب الروحي للفتاة.
4- الصياغة والتطهير الجسدي والروحي لأداء القسم.
5-الزواج هو إحداث رباط مقدس ترتبط به روحا العروسين، ويبقى هذا الرباط المقدس قائما حتى بعد الموت تباركه الملائكة ما دام طاهرا وتلعنه إذا ما دنسته الخطيئة.

القسم

حلفتك بالحي العظيم وبملائكته الأطهار وبرجال الدين والحاضرين أن لا تتكث وعدك ولا تنقض عهدك ولا تكسر ميثاقك تحافظ على قرينتك تعزها وتكرمها ولا تأكل ولا تشرب بدونها كن عصاها التي تتوكأ عليها أيام المحن تبتعد عن الخمر والكذب والسرقة لأنها تدمر حياتك الزوجية هذا ما أمرني به ربي وأنا أمرك أن تلتزم به.
وكذلك تقسم الفتاة بالقسم نفسه على أن تراعي زوجها وتسهر على راحته ويعطيها قطعة من الخبز مع الجوز واللوز ويطهر يدها بالماء ذاكرا اسم الله تعالى ثم يطعمها، ويقول لها كلي على أن لا تأكلي إلا منه ويمسك عهداً منها على الإخلاص لرجلها وعدم مشاركتها لغيره.

الذبح

باسم الحي العظيم (لا تأكلوا الدم ولا الميت ولا المشوه ولا الحامل ولا المرضعة ولا التي أجهضت ولا الجارح ولا الكاسر ولا الذي هاجمه حيوان مفترس وإذا ذبحتم فاذبحوا بسكين من حديد اطمئنوا واغسلوا وطهروا وشموا ثم كلوا).
توصي الديانة الصابئة بإتباع شعائر خاصة عند نحر الحيوان، ويجب أن يكون النحر لغرض الاستفادة من اللحم، ويحل الدين أكل الأغنام الذكر الصحيح فقط وأنواع من الطيور وكذلك الأسماك، فيجوز النحر في جميع أيام السنة عدا أيام الصوم الصغير ٣٦ يوماً وهناك شروط متبعة عند الذبح-:
1-ملاحظة تطهير الحيوان أو الطير بالماء وذكر اسم الله عليه ثلاث مرات.
2- تطهير السكين بحرقها تسخينها بالنار وغسلها والتأكد من كونها حادة مع عدم إظهارها إلا عند الذبح.
3- يجب ان يكون القائم بالذبح شخصا صحيح البدن لا مرض ظاهر فيه أو باطن.
4-يجب على القائم بالذبح ارتداء الملابس البيضاء بعد خلع الملابس الدنيوية تقديرا منه وإكراما لنفس الحيوان أو الطير.
5- إجراء الرشامة الوضوء وغسل اليدين والسكين.
6. مراعاة وجود شخص ثانٍ كشاهد على أن

القائم بالذبح إن ما يفعله يتم بحسب الأصول الدينية ورغبة منه في توفير الطعام للناس حبا بالله وتبركا بنعمته.

7- وجوب تلاوة البوئة(الآية) الآتية عند الذبح بعد قراءة نص التحليل(التهليل) بسم الحي العظيم نحرا زكيا يهب قوة وعافية لكل من يأكل منك اسم الحي العظيم مذكور عليك.

8- عند الانتهاء و خروج الدم يقوم الذابح بغسل يديه والتحلل من خطيئته (الذبح) حيث يتلو البوئة الآتية باسم الحي ربي ذبحت بالحديد وحللت يدي بالماء أنا الخاطئ والحي وربي الغافر حل علي وأغفر خطاياي وحوباتي وزلاتي وذنوبي ومساوئي أنا فلان بن فلانة رسم الله العظيم مذكور عليّ.

المحرمات

1- الجذف باسم الجلالة أي الكفر أو توطأة إسم الله جل شأنه؛ لأي سبب كان وبأية حال من الأحوال بل يجب أن لا يتخذ من اسمه المبارك أداة للقسم على الإطلاق.

2- القتل السرقة الخداع الكذب التأويل شهادة الزور عبادة الشهوات محية الأجساد.

3- الزنا ويعتبر من الكبائر المؤدية بصاحبها إلى النار المهلكة التي لا يكفي عمر الإنسان للتكفير عنها.

4- السجود لغير الله كالكواكب والأفلاك كما جاء في أحد النصوص المقدسة باسم الحي العظيم هي المطهرات ومقر الشياطين ومحطات العذاب التي تمر بها النفس أثناء عروجها إلى عالم الأنوار. (باسم الحي العظيم أيها المختارون اني أعلمكم أيها المؤمنون لا تعبدوا الكواكب التسعة ولا البروج الاثنى عشر لا تنفك تدور في محورها ليلا ونهارا لا تسبح للشمس ولا القمر الذين ينيران هذا العالم فما وهب كلا الاثنين بالأنوار إلا لأجل أن يضيئا البيت المظلم أنهما ملاكان في هذا العالم الزائل).

5-السحر بكل أنواعه والتنجيم بحسب النص الآتي بسم الحي العظيم (لا تقصدوا السحرة والمنجمين الكاذبين المتلفعين بالظلام لا تزاولوا السحر ولا تختموا على الأجسام)

6-الختان وأي تغيّر في جسد الإنسان الذي وهبه الله كاملا وغير منقوص، وإن الطهارة فقد جُعل لها الماء.

7- شرب الخمر، البكاء على الميت فيذرف الدموع، ليس السواد.

8- محرمات الزواج نفسها التي عند إخواننا المسلمين ويضاف إليها زواج زوجة الأخ.

9-تلويث المياه الجارية، الطلاق، التبرج، العالم الذي لا يعطي من علمه والكثير الكثير من المحرمات التي نشترك بها مع إخواننا المسلمين والمسيحيين التي تجتمع على الفطرة والأصول والعمل الصالح التي نعتبرها فريضة يوجبها الإيمان الحق والإمساك عن سيئات النفس واجب مفروض على بني البشر.

(داعي الحي داعي الله يدعو كل إنسان يرقب نفسه طوبى لمن عرف نفسه وقوم لبه ويل لمن يوسوس الآخرين ولا يسوس نفسه ويل لمن يهدي الناس ولا يهدي نفسه).

الحساب والعقاب واليوم الآخر

يعتبر يوم الموت يوم فراقنا بالنفس بعد مغادرتها لجسم آخر الولادات الروحانية تجابه رحلة تؤدي بها إلى المرور بمواقع التوقف السبعة، وتسمى عوالم الحساب، وهي عوالم شريرة بكل ما فيها وما عليها إلى أن تصل إلى الميزان وتوزن الأنفس أن كانت أعمالها صالحة تذهب بطريق المختارين والصالحين وإن كانت أعمالها رديئة ترجع إلى المطهرات السبعة لكي تكمل دورتها التطهيرية ويوم الدين أو يوم الدينونة، وهو اليوم الآخر تحاسب فيه كل الأنفس.

أما بالنسبة ليوم الساعة أو يوم الخلاص أو إذا بلغ العالم نهايته؛ فأحب أن أورد النص الآتي ويترجمته الحرفية باسم الحي العظيم(إذا بلغ العالم نهايته فسوف تهوي الأرض إلى اليوم الأخير انقاض وسوف تنطوي السماء حول نفسها كالحصائر وسوف تجر الشمس اشعتها ويسحب القمر نوره وسوف تقع النجوم والأجرام السماوية كما لو كانت ورقا جافا وسوف تدخل النار في غمدها ويترامج الماء إلى اجريته وسوف تمسك الرياح الأربعة بأجنحتها مانعة إياها أن تهب بعد أن روها واور والكواكب السيارة وأرواح الناس الأشرار الذين اعتنقوا دينهم أولئك سوف ينادي بعضهم بعضا ويمسك بعضهم بعضا سوف يكبل الجميع بالأغلال ويقذف بهم مثل رمانة من الرصاص في اور رب الظلمات في جوفه والدخان يتصاعد من معدته وسوف تتأجج النار ملتهبة لكي تلتهم اور رب الظلمات والروها الكاذبة والكواكب بأسرها وأرواح الناس الأشرار أولئك الذين كانوا قد اعتنقوا مذهب الكواكب.

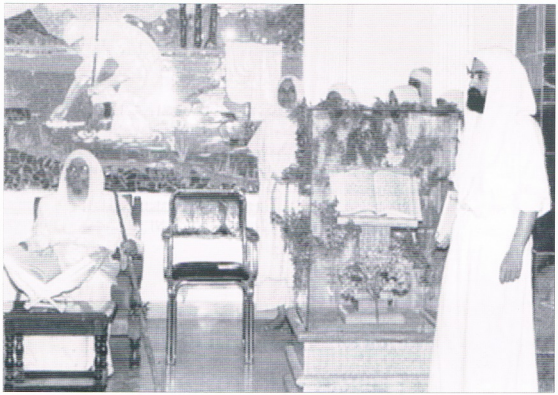

المثيل السني

عندما خلق آدم الجسد البشري خلق آدم الخفي كسيا(مشوني كشطا) أي العالم المثالي أو عالم العهد وكل منا نحن البشر ذكر وأنثى مثيل سماوي سني سمي (دموثا) أي المثيل، وكل منا يعمل الخير و الصلاح في العالم المثالي، والعمل الصالح يعمله لكي يقترب منه مثيله السني المثالي يصل إلى حالة من الروحانية لكي يلتقي مع مثيله، وهناك نص من كتاب الكنزا ربا المقدس(باسم الحي العظيم أذهب إلى مثيلي ومثيلي يأتي إلي واحتضنه كأبي خارج من السجن).

الخاتمة

(كل من ارتسم برسم الحي وذكر عليه اسم الربّ وثبت وتقوّم بصباغته وعمل أعمالا طيبة لا يؤخره أحد يوم الحساب) كنزا ربا.

دراسة دين الصابئة المندائيين مهمة للبحث في العقائد الدينية الأخرى، فهي مهمة تاريخية لبيان العديد من الجوانب اللغوية والفكرية، وذات الصلة في التراث المشترك لهذه المنطقة بصفة خاصة والأديان الأخرى بصفة عامة هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن بيان الجوانب المشتركة التي تشكلت بموجبها الأسس والنواة الأولى في شعائر وعادات العديد من الأديان والشعوب من حيث الزمان والمكان والموضوع؛ ولأنها قديمة العلاقة من حيث المكان و تتعلق بمسيرة الإنسان والأديان الأخرى ومجتمعها للغتها المقدسة التي تشير إلى زمان متوسط بين اللغات المهجورة واللغة السريانية، وكما إنها تُشكل القاسم المشترك والملتقى التوحيدي لكل ما هو قديم وحديث، وإننا كنا قد لمسنا جميعا المؤثرات التي تكبدها أبناء هذه الملة على امتداد أكثر من خمسة عشر قرنا نتيجة جهل المعنيين والعوام من الناس بهذه الديانة العريقة التي قال عنها الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد لا يخلو دين من الأديان قاطبة من شعيرة أو مشابه من شعائر الصابئة المندائيين أو كما قال أبو القاسم صاعد الاندلسي كانت أمم الأرض السبعة على دين الصابئة، وقد أيّد ذلك ابن حزم الشهرستاني كل بحسب تعبيره ورؤيته.

أنّ المندائية ديانة قديمة موحدة مستقلة بذاتها، لها فلسفة دينية ولاهوتية، وكتاب مقدس، ومجموعة من الانبياء والاباء والمعلمين المقدسين، التي تتبع تعاليمهم حتى الآن، ولها أيضا نظام ديني طقسي يتم بموجبه أداء مراسيمها الروحية كافة. ومثلما تتفق الديانة المندائية مع الديانات الأخرى في بعض المفاهيم والطقوس والفلسفة الدينية، تختلف مع بقية الأديان بكثير من الأمور، وهذا ما يميز الديانة المندائية عن غيرها، وما يميز الديانات الأخرى.

الديانة المندائية وانبيائها المقدسين

الترميذا يوحنا النشمي سيدني/استراليا

فلذلك أن الديانة المندائية وببساطة ليست طائفة يهودية، كما يزعم البعض، خاطئين؛ لأنها لا تتبع تعاليم التوراة، وأيضا ليست طائفة مسيحية، كما يزعم البعض الاخر؛ لأنها لا تعترف بالمسيح كإله متجسد، على الرغم من وجود تشابهات كثيرة فيما بين تلك الاديان او غيرها.

.إن الصابئة المندائيين يؤمنون أشد الأيمان بأنبيائهم ومعلميهم وآبائهم الأوائل الذين انبنت على أيديهم وعلى مختلف عصورهم الديانة المندائية .. فكان لهم الأثر الكبير على تعاليم الديانة الصابئية المندائية ومبادئها وفلسفتها وحتى طقوسها ومراسيمها الدينية .. وان الآباء والمعلمين الأوائل هم:

•النبي والأب والرجل الأول آدم (أبو البشر) الذي يحتفظ المندائيون بصحفه السماوية.

•النبي شيتل بن آدم الرجل الأول (الغرس الطيب) الذي أفدى والده، فكانت روحه الأقدس من بين البشر.

•النبي سام بن نوح (المتعبد الخاشع) الذي تزخر الكتب الدينية المندائية المقدسة بصحفه وقصصه وترانيله.

•النبي يهيا يوهنا _ يحيى بن زكريا _ يوحنا المعمدان (الحبيب المرتفع) ويحتفظ المندائيون بكتابه الذي خطت قسماً منه أنامله المقدسة، وزاد عليه تلاميذه من بعده .. وهو معلم الحق الأخير الذي يؤمن به الصابئة المندائيون.

•إن المندائية، من الديانات الموحدة (Monotheism) التي تؤمن بإله واحد معبود مستقل ومبعوث بذاته (الاها اد من نافشي افرش – الإله الذي انبعث من ذاته)، غير محدود الأسماء والصفات والقوة والإرادة، فلذلك تطلق عليه اسم (هيي – الحي = الحياة)،والحياة هنا يقصد مفهومها العام والشامل المتمثلة بالحركة اللانهائية للوجود. والحي الرب موجود ومنتشر في جميع

الفضائل، ويسكن الشمال القاصي، فلذلك يتجه المندائيون في اداء مراسيمهم الدينية كافة الى جهة الشمال والتي تسمى بـ(بيت اوثر).. ويسمى في اللغة المندائية بـ(هيي) أي الحي أو الحياة .. لان الحي هو جميع الحياة، والحياة بأكملها هي الحي.

أسس الايمان المندائي:

انَّ أهم نقاط وأسس الأيمان المندائي ممكن ان نلخصها بالآتي:

•الأيمان برب خالق الأكوان منزه عن السيئات مقيم في ملكوته الحي في أقصى الشمال ومقيم في جميع الفضائل والجمال. وهو غير محدود ابدي وأزلي في كينونته، ليس له حدود في صفاته، وقوته، وعظمته. فلذلك تسميه الحياة العظيمة.

•الأيمان بان هذا العالم جزء بسيط وصغير جدا من خلق الحي العظيم. فلذلك يؤمن المندائيون بوجود كائنات اخرى ربما تعيش في بعض الكواكب.

•الأيمان بان هناك معركة ما بين الخير والشر في هذه الحياة، ويمثل الخير بالنور وبالمياه الحية العذبة جاءت الجارية، ويمثل الشر بالظلام وبالمياه المبتة المالحة .. وتؤمن المندائية بان من الاهمية امتزاج المياه الحية التي جاءت من عوالم النور والحياة، بالمياه الاسنة الارضية، لان من عبق وعطر الاولى تزدهر الاخيرة وتنتعش. الأيمان بوجود الحياة الأخرى وبان الإنسان يجب أن يحاسب على أعماله وعبادته عند وفاته في أماكن خاصة تدعى (مطراثي – مطهرات)، فالمندائية لا تؤمن بوجود الإنسان الخير المطلق ولا الإنسان الشرير المطلق، وانما تؤمن بان على الجميع الاعتراف بأخطائهم وزلاتهم ونقصهم وعليهم ان يطهروا قلبهم وافعالهم من كل ما لحق بهم في حياتهم على الأرض ويرتقون بعدها الى عوالم النور حيث الحقيقة والصفاء والنور والحياة المتقنة.

•الايمان بان نفس الانسان التي تسمى (نيشمثا) هي نفسها(مانا – العقل) هي نفحة من نفحات الخالق الرب العظيم التي جاءت من ملكوت الحياة(بيت هيي) واستقرت في جسد الانسان، وتدعى ايضا بالجوهرة النقية التي يجب ان ترجع الى ملكوت الحياة بعدما تتقى

من الشوائب التي لعقت بها أثناء مرورها بالحياة الارضية .. فلذلك يؤمن المندائيون بفلسفة عودة الاشياء الى اصلها بدورة كاملة ومتقنة وهي دورة الحياة الطبيعية.

•الايمان بان التعميد (المصبتا) هو الطقس الضروري لانقاذ الانفس من براثن الاسرار المادية وتقوية النفس البشرية بانعاشها بنور الحياة المتجسد بالمياه الحية الجارية.

•الأيمان بالمعرفة؛ لأنها الطريق الموصلة الى رب الوجود وعلة هذا الكون. وبالتالي الاتحاد بحياته العظيمة. لاسيما ان المعرفة (مندا) صنو الايمان (هيمنوثا) في الفكر المندائي، ويعتبران حالة مثالية للانسان المؤمن الذي يبغي الحياة الروحية في المندائية.

والتي من خلالها يصبح جبلا لا تزحزحه الرياح.

•الايمان والتمسك بالسلام وعدم الاتكال على قوة السلاح في مواجهة المصاعب والمحن في تلك الحياة

•الايمان بان الحياة هي المصدر العظيم للمعرفة.

اهم المحرمات المندائية:

اما اهم المحرمات التي تنهى عنها الديانة المندائية فهي:

* جدف اسم الله (أي الكفر به وتوطئة شأنه)

* القتل ، السرقة ، الخداع ، الزنا، الكذب ، التأويل ، شهادة الزور ،الحسد ، النميمة ، الغيبة ، خيانة الأمانة والمعثر ، وكل ما يسيئ التصرف الإنساني

* السجود لغير الحي العظيم وعبادة الكواكب والأفلاك و البشر والنار والماء ، وكل شيء غير الخالق الأزلي

(هبي ربي)

- السحر و الشعوذة بكل أنواعه.
- قتل الحيوان من دون سبب، وتأذيته عند نحره.
- شرب دم الحيوانات والميتة منها ، وذبح الحامل، واكل الحيوانات المفترسة.
- كل الأعمال التي تضر صحة الإنسان الجسدية والروحية والعقلية.
- البكاء والنواح ولبس السواد على الموتى.
- إعطاء الصدقة والتحدث بها.
- الختان وأي تغيير في جسد الإنسان الذي وهبه الله له.
- تلويث الطبيعة والأنهر.

- الانتحار وإنهاء الحياة والإجهاض المتعمد.
- الحلف او القسم اذا كان باطلا.
- الرهبنة.
- التشبث حد العبادة بالدنيا الفانية وبمقتنياتها الزائلة.

المصبنا .. شعار الديانة المندائية:

ان الطقس المركزي في الديانة المندائية هو (طقس المصبنا = الصباغة = التعميد) والذي يجري في الماء الجاري (الحي) الذي يعدّ رمزا للحياة.

الميثولوجيا المندائية تعدّ المصبنا سماوية، وليست أرضية، فالمصبنا تمارس من قبل جميع الملائكة في عوالم النور، لغرض الارتقاء بالعلم والمعرفة إلى عوالم أنقى والتبجيل للحي العظيم "مسبح اسمه".ومن لاهوتية المصبنا ان الارتماس (الطماشا) في الماء الجاري الحي (يردنا) هو انغماس في السائل الحيوي للحياة فهو يمنح الجسد المادي الصحة والعافية والقدرة والديمومة على المواصلة، ويخلص الإنسان من قوى الموت ويعد بحياة خالدة أبدية. والمصبنا في الوقت نفسه علامة التطهير الاولى، التي جبل عليها الانسان فطريا، فكما يطرد الماء القذارة والاوساخ والنجاسة من الجسد، كذلك يطرد الخطيئة والنجاسة من النفس، لاسيما اذا كان مصاحبا بذكر الحياة الحية (الحي العظيم). ولأنسى هنا ان جوهر الفكر المندائي أن يصاحب النظافة والطهارة وصحة الجسد والطاعة في اداء المراسيم، سلامة العقل والفكر والضمير واطاعة القواعد الاخلاقية والالتزام بأركان الدين. والمصبنا ولاهوتها عبارة عن مراسيم فيها رموز كثيرة تعبر عن الحياة وديمومتها، ومترابطة مع صلوات وتضرعات وترانيل وشعور بالندم، والاحساس بمكانية الخلق والولادة الجديدة، والندم الى الحي العظيم (مسبح اسمه). فهذه كلها مجتمعة تجلب مميزات اليردنا السماوي وخواصها الالهية وتجعلها حالة في الطقس. فهي تجعل طالب التعميد المندائي قادرا على الاستفادة منها والانتعاش من قوتها السماوية، وصفة الحياة والطهارة بشقيها الروحي والمادي تكسبها لمن يتناولها. فخلاصة (المصبنا) صيرورة الانسان من ابناء النور والعهد الحق، واكتساب الخلودالروحي في عالم الانوار عن طريق الاتحاد بالشيوه (دموثا) والمعرفة الحية والتطهر من الخطيئة التي تثقل حاملها، وتجره الى

مسالك ومهالك الظلمة.

المندائية وبعض تسمياتها في التأريخ:

أطلقت تسميات عديدة على المندائيين في التأريخ، سواء هم أطلقوها على أنفسهم أم الأقـوام المجاورة عرفتهم بها. ومن هذه التسميات ومعانيها كالآتي:

•المندائيون .. من (مندا) أي العارفون بـوجود الحـي العظيم، أي الموحدون.

•الناصوريون .. وهي تسـمية قـديمة جدا، وتعني المتبحرين او العارفين بأسرار الحياة. أو (المراقبـين ، الحراس).

•الصابئة .. من (صبا) أي المصطبـغون (المتعمدون) باسم الرب العظيم.

•المغتسلة .. من (غسل) أي تطهر ونظف. وأطلقـها المؤرخون العرب، وذلك لكثرة اغتسـالهم بـالماء (تعميدهم وغطسهم بالماء

•شلماني .. من (شلم – سلم) وهي تسمية آرامية مندائية تعني المسالم.

•ابني نهورا .. أبناء النور، وهي تسمية أطلقـت عليهم في كتبهم الدينية.

•اخشيطي .. من (كشطا) أي أصحاب الحق او أبـناء العهد، وهي تسـمية أيضا أطلقـت عليهم في الكتب الدينية.

•المصبتيون .. من (مصبتا) أي المتعمدون او وس.

المصطبـغون، وهي اصل كلمة (الصابـئة) في اللغة العربية .. وقد أوردها الكاتب المسيحي هيغوسيبوس.

المندائية وتساوي الجنسين:

ان الفكر المندائي يعطي قدسـيـة عظيمة للعنصر الذكوري والعنصر الانثوي في هذه الحياة، ويعدّهما من التكوينات السماوية الاولى والمتوازية في الخلق، حيث يرمز للعنصر الذكوري بـ(سـيندركا– النخلة او رمز للتكاثر والثبات) ويرمز للعنصر الانثوي بـ(ابنا – عين او ينبوع المياه). وان اتحادهما يمثل القوة الخالقة التي هي الحـياة. من هنا نفهم أن المندائية تؤمن بـان العنصر الأنثوي ليس طارئا على الخليقة، وانما موجود في الأصول الاولى للخلق. فهناك نرى ورود عدد كبير من اسماء الكائنات النورانية الانثوية، التي لها قداستها في الايمان المندائي، التي تأتي مصاحبـة للكائنات النورانية الذكورية (من ملائكة، اثري، ناطري) وقرينة لهما. ومن امثال تلك الكائنات النورانية الانثوية نـورد بعضها: سيمات هيي (ام الحياة)، ازلات ربتي (ازلات العظيمة)، مركنيثا دكينا (الجوهرة الطاهرة)، بـهرات انانا (السحابة النقية) ...الخ. فقد جاء في كنزا ربـا ما يأتي: ((ذهب واخلق رجلا واحدا وامرأة واحدة وأطلق عليهما الاسمين آدم للرجل وحواء للمرأة)).

درجات الكهنوت المندائي:

ان رجال الدين المندائيين على درجات متفاوتـة مـن الكهنوت، كل بحسـب درجته الدينية لتي يذالها نتيجة ه

دراسته واكماله الطقوس الروحـية الواجبـة، ونتيجة ايضا ترشيحه من قبل رجال الدين البقية. وان درجات رجال الدين المندائيين كالآتي:

•الربي: أي معلم الحق .. وهذه الدرجة روحية لايمكن احد ان يصلها الا باختيار من الرب العظيم، وهي بمثابة النبي او المشرع لامور الدين، وان اخر انسان وصلها بحسب ايمانهم هو يوحـنا المعمدان او كما هو معروف عند المسلمين النبي يحيى بـن زكريا. أي قبـل نحـو ٢٠٠٠ سنة.

•الريشما: أي رئيس الامة، ويوجد شخص واحد فقـط بهذه الدرجة.. وهو رئيس الطائفة الروحي.

•الكنزبرا: أي (ابن الكنز) ويقصد به (المفروض) و هو العارف بـامور الكتاب المقـدس للطائفة من تتشـريع وتفسير .. وهو المسؤول عن اداء الطقوس الدينية كافة مثل الزواج وغيره .. ويوجد اربعة من هذه المرتبة.

•الترميذا: وهو رجل الدين الذي له الحـــق في اداء المراسيم الدينية لعامة الطائفة، وهو الذي يقوم بتثقـيف ابناء الطائفة وتعليمهم .. ويوجد ٣٠ ترميذا في العالم.

•الشكندا: وهو المساعد الديني لرجال الدين عند اداتهم الطقوس الدينية، ويدونه لايتم أي طقس ديني كبير.

ويجب ان يمر المرشـح لنيل الدرجة الاولى من سـلم رجال الدين، باختبارات دينية وسلسلة من الطقوس التي تستمر لمدة اسبوع واحـد يلبـس خلالها مع اسـتاذه المشرف، الملابس الدينية البـيضاء الخاصة بـالموت التي ترمز الى موت حياته القديمة وولادته مرة اخرى .. يتبعها فترة اعتكاف للصلاة والتأمل والدراسـة لمدة ٦٠ يوما من العزلة التامة، حينها يتسلم هداياه واسلحته الكهنوتية، وهي (خاتم الحـياة وهو من الذهب الخالص ويجب ان يرتديه مادام حـــيا في خنصر يده الايمن، وعصا الكهنوت من شجرة الزيتون، والتاج الذي يحاك من الحرير الخالص، وباقة من اغصان شـجرة الاس التي ترمزلخلود عطر الحياة الطيب) بـعدها يصبـح المرشح برتبـة ترميذا. ومن المفيد ان نذكر ان رجال الدين المندائيين يتزوجون وينجبـون؛ لان عدم الزواج لديهم محرم، وايضا ان رجل الدين يجب ان يكون خاليا من أية عاهة جسدية او عقلية، وصحـيح النسـب من ابـويه. وان رجل الدين المندائي يعد وجبـات طعامه بنفســـه والمتكون من مواد طازجة وطبـــيعية غير صناعية، ولا يحق له تناول الطعام مع عامة الناس.

بعض الشروط التي يجب توافرها في الشـخص الذي يبغي ان يصبح رجل دين:

•ان يكون سالما من الامراض العضوية والعقلية.

•ان يكون جسده كاملا ولا يوجد اي نقص او زيادة في اعضاءه.

•ان يكون عمره ٢١ سنة فما فوق. ويوافق عليه مجلس عموم الطائفة من الناحية الاجتماعية (حسب ماورد في النظام الداخلي للطائفة في بغداد).

•ان يتخرج من المدرسة الدينية، وان يكون تلميذا لاحد رجال الدين.

•ان يكون لديه خبرة في كيفية اداء المراسيم الدينية.

•ان يكون على درجة جيدة من الثقافة العامة.

اوردت الباحثة والمستشرقة الانكليزية المشـهورة في الشأن المندائي (الليدي دراور) في كتابها (المندائيين في العراق وايران) (بان الطائفة سوف لا تستمر الى فترة اطول؛لان رجال دينها الموجودين كبار في السـن وان

ذريتهم يرفضون ان يكونوا رجال دين) ..اعتقد لو ان الباحثة اعلاه مازالت على قيد الحياة وموجودة في ما بيننا الآن لكانت قد غيّرت رأيها، وهي تتجول قريبا بين طائفتنا الآن!!على كل هنالك حقائق وراء تبنيها لرأيها السابق .. ومن اهم الحقائق هي ان الانخراط في السلك الديني بقي محصورا لفترات طوال وراثيا في عوائل خاصة في الطائفة، الى ان جاء الريشهري عبدالله الكنزابرا نجم الى رئاسة الطائفة الروحية(مع عدة عوامل اخرى) بدأ عدد كبير من الشباب المندائي بالانخراط في السلك الكهنوتي.لم اكن يوما افكر بان اصبح رجل دين، وانما كنت ملهما ومثلهما بالمفاهيم الدينية والاخلاقية المندائية، ومتمسكا بالحياة الدينية والاخلاقية المندائية. فلم تكن عائلتي من فئة رجال الدين، وانما فئة لها مؤهلاتها العلمية والمهنية. وما تروني الآن كحالة واقعية أمامكم الا نتيجة هذا التحول في بعض المفاهيم الدينية والاجتماعية للطائفة، بعدما كانت مغلقة لاسباب عديدة على نفسها في بيئة قاسية ومضطهدة لها، وهي بيئة جنوب العراق. فقد اصبح الآن اكثر من ٢٧ رجل دين واكثرهم من الفئة الشابة بعدما كانوا ٧ في فترة بداية الثمانينيات من القرن الماضي. هذا احد الادلة القوية على تمتع هذه الطائفة بقدرة ورغبة كبيرة في البقاء والاستمرار .. لان مؤمنيها يؤمنون بان اذا انقرضت المندائية من هذه الحياة؛ فان فناء الارض سوف يكون قريبا.

بعض الامور العصرية التي تواجه الطائفة المندائية:

استطاع المندائيون ان يجابهوا الظروف القاهرة المحيطة بهم، بالانعزال التام عن مسرح الاحداث، او على الاقل الابتعاد نسبيا عن مدى تأثيراتها .. وساعدتهم في ذلك البيئة القديمة التي كانوا يعيشونها في جنوب بلاد الرافدين، في قرى صغيرة موزعة على ضفاف الانهر وما بين الاهوار ، والاضطهاد الكبير والمستمر الذي تعرضوا له من قبل اغلبية جيرانهم، وذلك بسبب النظرة الخاطئة والمريبة (مع العلم ان لهذا الانعزال ايجابياته في وقته، وسلبياته التي نجابهها الآن بسبب ذلك الانعزال). ولكن هل الانعزال في ظل هذا الوقت هو الحل الصحيح لديمومة الطائفة؟!في ظل فرص الحرية والديمقراطية التي تتمتع بها في الدول المتحضرة وفي ظل التحول السريع للنظام العالمي الذي جعل من العالم قرية عالمية صغيرة، وما رافقه تحول في البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية!! سؤال مطروح لابناء الطائفة. وان التغيير في الظروف التي تعيشها الطائفة في الوقت الحاضر، هو من اكبر التحديات التي مرت بها الطائفة على مدار مئات السنين الماضية من اهم الامور التي تواجه الطائفة هي:

1-كيفية تثبيت حقوق الطائفة الدينية والمدنية في كل من العراق وايران.

2-كيفية ابقاء وسائل الاتصال بين جسد الطائفة الذي تقطع الى أوصال صغيرة منتشرة على اكثر من ١٢ دولة في العالم.

3-كيفية تخليص المندائية من بعض الافكار غير الجوهرية وغير المناسبة التي علقت بها مع مرور الزمن، وتشذيب الطقوس والمراسيم واظهار الجانب الروحي المهم والحقيقي منها.

4-هنالك عدد من ابناء/ بنات الطائفة الصابئية المندائية الذين تزوجوا من خارج محيط الطائفة لاسباب متعددة .. وفي الوقت نفسه مصرين على ايمانهم المندائي، وترغب ذريتهم بالانضمام الى الجماعة المندائية.

5-كيفية استقطاب الفئة الشابة في المجتمعات الجديدة التي تعيش بها الطائفة، وكيفية وضع الخطط الناجعة لاستقطابهم.

يؤمن الكثير من ابناء الطائفة بان على المندائية ان تتبنى خطوات جديدة لتستطيع ان تستمر حية وقوية لاسيما في ظل الظروف الجديدة التي تعيشها الطائفة وكذلك في ظل التحول الذي حصل لابناء الطائفة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلمية. فلذلك ان رجال الدين ومثقفي الطائفة ومؤسساتها كافة يتحسسون اهمية عقد مؤتمر عام لرجال الدين المندائيين في العالم من اجل مناقشة بعض الامور المهمة التي طرأت على حياة هذه الطائفة، ومناقشة تشكيل مجلس ديني عالمي يضم جميع رجال الدين في العالم له آلية خاصة من اجل مواصلة خدماته والوصول بنجاح الى اهدافه .. نطلب من الرب العظيم القوة والشجاعة لتحقيق هذا الامر المهم .. دعوتنا ان يلتفت رجال الدين ومثقفو الطائفة وخادموها الى امور اكثر جدية ويتركوا المهاترات والمناحرات الداخلية التي لاتغني ولاتسمن احدا سوى المنتفعين والطفيليين.

انّ الصورة التي ترسمها نصوص (الكنز - ربا) الكتاب المقدس للصابئة المندائيين عن الله تحتاج الى تحليل رموزها، لنصل من خلال التحليل الى معرفة الله

معرفة الله في التصور المندائي

سالم غصاب كفل

المعرفة باللغة المندائية تعني (مندا) والمندائيون هم العارفون بالله. والسؤال هنا، اذا كان المندائيون يعتقدون بأن الله ، وكما ورد في كتابهم المقدس عن الله،(هو الغريب عن اكوان النور) وهو (العظيم الذي لا يُرى ولا يُحد)، وجاء في نص اخر (ان الملائكة جميعا خاشعون لا يعرفون اسمه ولا يتبينون رسمه)، فكيف تسنى للمندائيين معرفة الله ؟

لقد جعل الدين المندائي تعدد صور الاشياء وتباينها وحدة شاملة تكمن خلفها. اليها تعود جميع هذه الاشياء التي صدرت عنها. وتعدد الاشياء، امر سطحي لا قيمة له، انما المهم هو مايكمن خلفها. لقد تناول الدين المندائي المظاهر الكونية(الارض والسماء والافلاك)جميعها باعتبارها تعبيرا عن ارادة الله، كما تناول الذات الانسانية التي هي مصدر الاخلاق وموطنها.

ان عالم الذات هو الوسيلة للوصول الى عالم الموجودات. من هذا المنطلق نجد ان النصوص المندائية، وخصوصا نصوص (الكنزا- ربا) مسار يبحث في سر النفس ومعرفتها وماهيتها، وهي بهذا اتجهت الى دراسة الانسان، وما يتفاعل في وجوده وذاته من قيم ومناقب. وبهذا اصبح الانسان في نظرها من اسمى الاهداف الشاخصة للكمالية والمثالية. (باسم الحي العظيم. (١) انا مانا (٢) انا ادم مانا..النقي الوقور، غرسة بلد النور (٣) نقي انا نقاء الاثريين، وان اقمت في ثوب من طين (٤) بقيت عامرا بالايمان..لا عوز يدنو الي ولا نقصان (٥) حافظا نسبي، متمسكا بتعاليم ابي، مستنيرا بالذي هبط بي، فأحلني في هذا الجسد)١.

ان النفس التي دخلت الى الجسد البشري فواكبت سلوكه وافعالاته واستجاباته خلال فترة وجوده في هذا العالم ليست سوى جزء من النفس الكلية التي اوجدت الموجودات..ان النفس تشتاق للعودة الى الكل الذي انبثقت منه لتبلغ كمالها ومثاليتها، وهذا لا يتم الا عن طريق الافادة والتعلم واكتساب الاخلاق الفاضلة.

ان النفس هي التي تهب الانسان طابعه العقلي. وان المعرفة المعللة هي التي توصلنا الى الحقيقة، اي معرفة الامور بعللها واسبابها. (ان العقل هو اسمى درجات المعرفة وارقاها جميعا، كون موضوعه التصورات المجردة او المثل العقلية. كالعدالة والجمال والخير، فهو يطلب العلم الكامل والمعاني الكلية والماهيات الثابتة والصور المفارقة والحقيقة العليا، حقيقة الحقائق بدون الاستعانة بالحواس والرجوع اليها)٢.

الذي يدرك بالعقل والمجاهدة الفكرية والدأب على حياة

التأمل و النظر، فهو الغاية القصوى و المطلب الاكمل .
((٣) كتبي بين يدي (٤) وسجل ذكرياتي على ذراعي (٥) في الجديدة أتأمل (٦) ومن القديمة أتعلم (٧) فأميز ما كان، وما هو كائن، وماسيكون) 3.
ان الافكار الكلية و المعاني و الصور المفارقة وسائر الماهيات هي سرمدية، لا يتطرق اليها اي تغيير، و لا ينالها اي فساد، ثم انها مرتبطة بالنفس. فأذا كان مصدر هذه الاشياء ليس الحس، فما سيكون؟ و الجواب سيكون عالم المثل (دموثا)٤.
وان هذه الاشياء هي حقائق محلية ثابتة موجودة في العقل وجوداً خارجياً مفارقاً مستقلاً عن الانسان. ان هذه الاشياء لا يدركها الا العقل الخالص، عقل حكيم عارف، وهبه الله مواهب لا تتحقق لاي انسان. وقد توفرت له الرؤيا الصحيحة الصادقة. وهذا يعني ان في جسد الانسان كائن سماوي جاء من ذلك العالم. (بأسم الحي العظيم (١) من بلد النور اتيت (٢) منك ايتها الدار المتقنة اتيت)٥ اذ لو لم تكن نفوسنا حاصلة على هذه الامثلة لما استطاعت ان تدرك هذه الاشياء.
ان نفوسنا، قبل حلولها في اجسامنا، كانت تعيش في عالم غير هذا العالم، عالم سام شريف، ثم هبطت الى هذا العالم، فأن رأت شيئاً ما تذكرت مثاله في ذلك العالم.
(١،٨)انا ادكاس- زيوا، العالم الذي من عالم النور اتى..مانا اكتنى، و النبعة اسمى (١،٩) ثمر الثمار اسمي، والنفس والنفس اسمي)..
ولنا هذا وقفة مع ادكاس - زيوا: ان ادكاس - زيوا، وادكاس مانا وهو مختصر للكلمة ادم- كسيا كلها تسميات لكائن سماوي واحد هو النفس. ان ادكاس - زيوا هو ادم الميتافيزيقي والانسانية الروحية برمتها. وهو يمثل النموذج الاصلي للانسانية، بل هو الحقيقة الكلية العامة الكاملة لكل انسان.
ان ادكاس- زيوا (النفس) عندما دخل في جسد ادم وحواء، اوقفهما على اقدامهما، واثار لهما اعينهما لكي يريا، وفتح فميهما لكي ينطقا بالحق ونصب ادم حاكما على الكائنات الموجودة على الارض. وهذا يعني ان النفس جاءت من عالم النور والقيت في الجسد حيث جاء معها بعض من ضيائها الساطع وتألقها ومن اخلاصها ومن وحدتها ومن نظامها ومن امانها و امانتها، وبعض من كل ما موجود في عالم النور.
من هذا فأن كادس- زيوا يعتبر المحبي والجانب الروحي والمحرك لأدم، وهو هبة عالم النور في الانسان، وبهذا فأن عناصر الحياة والنور موجودة في جسد ادم.
ان ادكاس- زيوا يعتبر قانون الحياة او (القانون السماوي) حيث تم تنظيم الحياة والتماسك على الارض.وبالنظر الى الدور المهم والبارز لأدكاس في الدين المندائي، فقد ذكر له اثنا عشر اسماً :ادكاس الرئيسي : ريشا ادكاس
مانا الخفي السري- ماناكسيا
نبتة : نبطا
عالم الناموس: الما دنموسا
نسمة الحياة : نشمثا
مانا : مانا
اصل الاصول : باريا باريثا
النور : نهورا
زفير الحياة : نهمت هيي

تتا : تتا
الحرارة الحية : الاشعاع الوهاج (اشاثا هيتا)٧.
ان كل ما ينتج من الانسان من مضامين خير ؛ فأنها تمثل المضامين العظيمة للنور والحياة. وان الله قد فصل بين الخير والشر، وبين النور والظلام، وبين الحق والباطل، ولكون النفس ملاكا قام من عالم النور فانها قادرة على ان تميز بين الخير والشر، والنور والظلام، والحق والباطل.
ان الدين المندائي يؤكد انه ليس بالعقل وحده تمحص الآراء والافكار بل ستكون القيمة للتجربة الصوفية والكشف والذوق والاشراق حيث لا يكون التعارض بين الذات والموضوع، وهنا لاتكون المعرفة تحصيلا وكسبا، انما تكون اتحادا بالله، والانسان في هذه الحالة لا يشاهد الله منفصلا عنه بل يشاهده متحدا معه.

الهوامش:

١- الكنزا- ربا/ الايسر/ الكتاب الثاني/ قلق ادم/التسبيح الخامس.
٢-جمهورية افلاطون.
٣-الكنزا- ربا/ الايمن/ الكتاب الثامن/ دناتوخت.
٤-دموثا كلمة مندائية تعني المثيل او الشبيه.
٥-الكنزا-ربا/ الايمن/ الكتاب السابع عشر/ اصل نشمثا.
٦-الكنزا - ربا/ الايمن/ الكتاب الثامن عشر/ الضياء الثاني.
٧-النشوء والخلق في النصوص المندائية/ تأليف كورت رودولف/ ترجمة صبيح السهيري، ص ١٥٨.

لقدْ دفعت مجمل التغييرات والتناقضات التي يعيشها مجتمعنا العراقي العديد من المنادئيين العراقيين الى إعادة النظر بشكل انتقادي في المفاهيم القديمة بشأن المثقفين ودورهم الايجابي في حركة المجتمع، فهم الآن لا يمثلون مجتمعا خاصا قليل العدد متجانسا اجتماعيا ومنفصلا عن دورة الإنتاج المادي والفكري، لان ممثليه يمارسون المهنة او العمل الذهني الصرف كل على انفراد. اذ اندثرت مفاهيم تقليدية كثيرة بشأن المثقفين وانعزالهم في أبراجهم البعيدة عن الناس وهمومها وتطلعاتها. المثقفون اليوم باعتبارهم أمناء للحقيقة ومثل العدالة، ومدافعين عن مصالح الذين حرموا من حق الكلام، ما زالوا يعيشون بيننا، ويربطون بين نشاطهم المهني والنضالي، في سبيل التقدم الذي نسعى اليه جميعا.

الكاتب العراقي
عزيز سباهي

مابين الماركسية والدين متسعا رحبا للتعبير عن هموم الناس

حاوره: موسى الخميسي

والمنادئيون يعترون بـان عدداً من مثقـفيهم ما زالوا يمثلون أحد رموزهم ورموز مجتمعهم الروحانية التي لا تتقـرض، من خلال أفكارهم وطروحـاتهم وعملهم النضالي الدؤوب، الذي لا يزال حـتى يومنا هذا مؤثرا في العلاقات المتبادلة بين أبـناء الطائفة بشـكل خاص والشعب العراقي بشكل عام. وعميد المثقفين المنادئيون الأستاذ عزيز سباهي الذي انخرط منذ صباه في العمل النضالي والفكري، هو نموذج الإنسان البـار الذي مثل ايجابية الموقف مع نتاج الفكر، حـارب كل اخواءات الحلول الفردية ومغريات مؤسسات السلطات الرجعية البائدة، التي عملت على تحـطيم وتشـويه الإنسـان العراقي، ودفع ثمنا لأفكاره سجنا وتجويعا وتشردا، من اجل ان لا تزاحم الإنسانية شريعة الغاب، ومن اجل ان لا يتم التلاعب في قيمة الإنسان.

هذا الإنسـان، المفكر، المناضل، النموذج، ظل حـتى يومنا هذا يطالب بان تكون الثقافة بـنهوضها وآفاقـها الرحبة بكل عناصرها المترابطة، مسخرة للإنسـان، وان تأخذ زمام مصيره وتأريخه العام بيديه، وان تكون جميع روافدها في خدمته، وان تؤخذ بالاعتبـار جميع جوانب الحياة الثقافية المتعلقة بـالعلم والتقـنية والفن والرياضة والأخلاق وتربية المواطنة والسياسة. لقـد عكس هذا الإنسان البار بكل معاركه ونشاطاته ومواقفه وفصاحته، في ظروف الانحطاط الفكري التي سـادت العراق او خلال هوامش العمل الديمقـراطي والانفتاح مفهوم المثقف الذي لا ينفصل عن نصير الآراء التقدمية بكل جلاء:

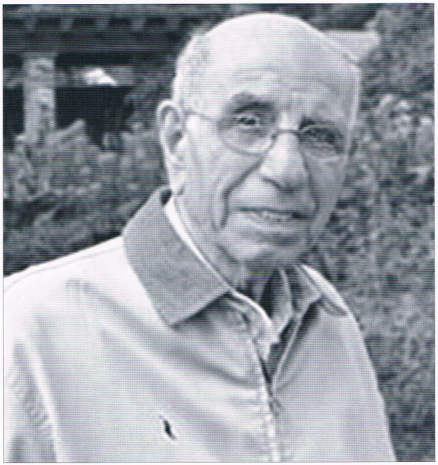

عزيز سباهي

هذا اللقاء مع الكاتب والمفكر الاستاذ عزيز سباهي

كيف توفق بين التزامك الشيوعي وانتمائك الديني المندائي حيث اصدرت كتابا اعتبر من اهم المصادر الحديثة عن تأريخ ومستقبل هذه الديانة العريقة، بالمقابل عملك الحالي في انجاز الجزء الثالث من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي؟

ثانيا لقد تربيت في المناطق الريفية في جنوب العراق في وسط ديني. كيف استطعت ان تخرج شيئا فشيئا من هذا الوسط وتصبح كاتبا ماركسيا؟

إذا سمحت لي، سأجيبك على تساؤلاتك هذه مرة واحدة، وكلها تدور كما ترى حول جمعي مابين الأنتماء الى المندائية واعتناق الماركسية في آن واحد، وما تولد عن هذا من اهتمامات في ميداني الفكر والسياسة.

في البدء أود أن أشير الى انني حين انخرطت في صفوف النضال الشيوعي في العراق إبان السنوات الأولى من أربعينيات القرن الماضي، لم أكن بوسعي قد تعرفت على جوهر الفكر الديني، متلما في المقابل لم أكن قد ألممت بالماركسية بعد كفكر، ولكل من الأمرين أسبابه، فلا الوسط الديني الذي نشأت فيه كان بوسعه ان يقدم الأجابات الواضحة والمقنعة لجيلنا من الشباب، وكانت المعارف التي يتلقاها في المدارس (ويومها لم تكن الصحافة او وسائل الأعلام الأخرى قد دخلت بيوتنا بعد) تفتح امامه آفاقا لا تسعفه بيئته العائلية البسيطة بتفسيرات مقنعة من جانبها. بالمقابل لم تكن المكتبة العراقية تزوده بما تطرحه الماركسية من تفسير للمشكلات التي تواجه هذا الجيل الا في النادر. وكل

ماكان هناك لايتعدى افكار اوطنية صيغت لتوضيح المهمات الوطنية التي تطرح امام الشباب من وجهة نظر الحزب الشيوعي العراقي.

هذا اولاً، ما اود التنبيه اليه، و ثانياً، هو انني انحدرت عن عائلة صابئية معدمة حقا، فقيرة الى حد البؤس، الى الحد الذي يدفعني الى التساؤل بحرية: كيف باترى استطاعت هذه العائلة، مع كل هذا، ان تدبر امر إعالة خمسة اطفال؟ هذا من جانب (وهو بحد ذاته كما ترى يدفع بالشباب الى الإحتجاج والنضال) من الجانب الآخر فالصابئة في العراق سابقاً وراهنا يواجهون نوعا من الإضطهاد، خفي احيانا، ومكشوف أحيانا اخرى، من المجتمع وحتى من السلطات التي يفرزها هذا المجتمع. إضطهاد ماكر، ايديولوجي ومادي، لا يقر لهم بالمساواة، برغم انهم لايقلون عن اقرانهم بشيء، ان لم يتفوقوا أحياناً. وكان لابد لهذه الحال ان تدفع بالشبيبة المندائية الى البحث عما يعينها على الخلاص، ويحقق لها طموحها في المساواة، وهو كما ترى بحث مشروع. وكان منطقيا ان يتجه الشباب، ومنهم المندائيون الى الحزب الشيوعي العراقي بالتحديد، ليس لصدقه في مايفعل وحسب، وإنما لكونه يشرع ابوابه أمام أبناء الشعب، دون ان يضع أمامهم اية قيود أو اشتراطات، قومية او دينية او عشائرية او جاه... الكل يجد فيه متسعاً رحباً للتعبير عن هموم جماعته، والكل يتساوى فيه ويتآخى فيه مع الآخرين، ويتصدر صفوفه من هو أهل لذلك بغض النظر عن كل الفوارق التي اتينا على ذكرها.

ومع الزمن، وتنامي المعارف وخبر الحياة والتجربة النضالية، بدأت يتضح لي ما خفي من افكار كلا الأنتمائين في بدئ الأمر، المندائي والماركسي. ولاأكتمك سراً، إن هذه التجربة في كلا جانبيها لم تخل من قصور في الفهم، وتشنج في التعامل، ومن نزعات الطفولة اليسارية احياناً. لا أزعم انني غدوت أمتلك من كلا الأمرين ناصيته الآن. وعسى ان تمتد بي الأعوام قليلاً لأشبع بعضاً من فضولي في فهم العلاقة أكثر بين الأنتمائين؛ تحقيقا للحكمة الصابئية المندائية: "ويل لعالم لا يمنح من علمه، وويل لجاهل منغلق على جهله".

والحقيقة أقول: إنني كلما إزددت وعيا بما تعانيه هذه المجموعة الصغيرة من الناس، إزددت يقينا بالحاجة الى الإقتراب منها، والسعي للأخذ بيدها لكي تتلمس سبيلها الى الإنعتاق مما تكابده من مرارات.

قبل بضع سنوات كان لي لقاء مع جمع من المنداتيين وبعض المثقفين من غيرهم في السويد في محاضرة، وضعت لها عنوانا غير مألوف: "الأشتراكية والحلم المنداتي". يومها قال قائل: إنني أمارس دعاية سياسية. لكنني كنت يومها، ولا أزال أؤمن حقا بما قلته. ظل الصابئة المنداتيون ولقرون طويلة يعيشون في بيئة منعزلة يسودها إقتصاد المقايضة. يحلمون بالمساواة والحرية... حتى إذا زحفت نحوهم العلاقات الرأسمالية الحديثة، بدؤوا يواجهون وضعاً صعباً... تكيفوا له حقاً بما عرف عنهم من طيبة ومسالمة ومثابرة؛ لكنهم بأتوا يواجهون خطراً جديداً هو إنحلالهم الى طائفة ذات معتقدات خاصة. وفي المهجر تحولوا، وسيتحولون ولاشك الى ما يشبه الأيقونات في المتاحف... تحتاجهم دوائر الدراسات اللاهوتية عينات حية لدراسة ماض سحيق من الصراعات الدينية... ولهذا لن يجدوا هنا أيضا متسعا رحبا لتحقيق أحلامهم كما علمتهم إياها معتقداتهم. إن ابرز ما تؤكده العقائد المنداتية تأكيدها على الجمع ما بين التطلع الى العلم، والحث على العمل. حتى الإنسان الراهن يعجب حقا بما تسعى المنداتية الى تقديمه في تفسير ظهور الكون وخلق الإنسان الراهن والإنتقال به من عالم الحيوان والظلام الى دنيا النور ورحاب المعرفة الإنسانية، وتأكيدها على التآخي والسلام ما بين الناس. إن حكمتهم ترى ان أسمى ما يسعد به الصابئي هو احترام الناس: "رأس غبطتك ان تحترم الناس" التعاليم المنداتية تؤكد على التعامل النزيه مع الناس وتحرم القتل وتقف ضد الحروب وتدعو الى السلم والى الإبتعاد عن الركض وراء المال واكتناز الذهب والفضة، وتنادي بالمساواة الكاملة بين الجميع وبين حقوق الرجل والمرأة.أليس في كل هذا ملامح من العدالة والمساواة التي تدعو لها الإشتراكية؟

لقد دعا ماركس الدين "زفرة المحرومين"، فأي تناقض اذن بين ان تدعو الى إنعتاق المحرومين (ومنهم المنداتيون)، وان تدلهم على الدرب الذي يضمن لهم هذا الإنعتاق! واي تناقض بين أن توفر لهؤلاء المحرومين فرصة التنفيس بالزفرة عما يضطرب في صدورهم الى جانب العمل من أجل خلاصهم من عوامل الأضطراب هذه! لعل من أجمل معالجات الماركسيين في هذا الشأن ما كتبه فردريك أنجلز رفيق ماركس عن نضال المسيحيين الأوائل لنشر المسيحية بين اواسط الأرمن وغيرهم في آسيا الصغرى، ونضال الإشتراكيين في مساعيهم الأولى لنشر أفكارهم في أوروبا.

لقد كان منطقياً أن يتوصل القدامى مع قصور ادواتهم المعرفية الى فهم العالم الموضوعي الذي يحيط بهم على نحو ما توصل اليه الأنسان في قرونه المتأخرة، وبالتالي عجزهم عن تبين السبل التي تحررهم من تشابكات العالم وصراعاته. لقد تناول ماركس الدين تناولا موضوعيا على إنه شكلا من اشكال الوعي الأنساني الايديولوجي الذي برز وانتشر في ظروف وبيئات معينة... لكن نقده إنصب على المؤسسة الدينية التي جعلت من نفسها ومعارفها أداة للتبشير بما يخدم خضوع عامة الناس المستضعفين الى ما يشاء المالكون والحاكمون. ولاتنس أننا ورثنا ما صور لنا المحتلون البريطانيون عن الشيوعية، والا فقادة العراق الأوائل الذين حاربوا الأنجليز كان لهم رأيهم المعاكس تماما بالبلاشفة ولينين. ولأن المنداتية توظف معتقداتها في خدمة عامة الناس وليس للسلاطين، وتؤكد على معتنقيها بالأبتعاد عن السلاطين، كان هذا هو ما قربها من المفكرين العرب الأسلاميين الذين عرفوا بنزعاتهم المتحررة كالفيلسوف ابو بكر الرازي او الشاعر المفكر ابو علاء المعري.

هناك من يقول لنضع صورة ماركس الى جانب صور العديد من مفكرينا العرب والعراقيين لرؤية المستقبل، ما رأيك بمثل هذه الطروحات؟

ثم هل ما زلت تعتقد ان الفكر الماركسي مازال صالحا لاصلاح الواقع العراقي؟

دعني اصارحك القول في ضوء الفوضى الشاملة والتخبط الذي يجري في الواقع العراقي، وغابة الشعارات التي تذهب الى حد التعارض احيانا، أعتقد ان لا سبيل الى الخروج الى بر الأمان وأكتشاف السبيل الذي يؤدي الى التقدم الا بامتلاك المنهج التحليلي الذي دعا اليه ماركس لفهم هكذا واقع، وتبين العوامل التي تدفع الى إضطرابه، والمصالح التي تحرك هذه او تلك المجموعات، والوجهات التي تؤدي اليها حركة هذه او تلك المجموعات، وموقعها من الحركة العامة للمجتمع. الواقع العراقي في حاجة الآن

الى ما يوضح طبيعة الصراعات الجارية، والى مايزع عنها إرادتها الأيديولوجية للكشف عن المصالح الطبقية التي تحركها، وتمييز تلك التي تدفع الى تقدم المجتمع. إن مانطرح الآن ليس بناء الأشتراكية. لكن ماركس لايحدثنا عن هذا وحده، وانما هو يدلنا على السبيل الذي يفضي الى القضاء على كل أشكال الأضطهاد، الطبقي والقومي، والديني، والأستعماري... وحين تضطرب الأمور وتغيم المقاصد وراء مختلف الشعارات، ولاتعود الطبقات الفقيرة والمسحوقة والجماعات الدينية والإثنية المضطهدة تتبين طريقها في هذا الجو المتلاطم، يبرز الفكر الماركسي دليلا يقود الى السبيل الذي يعبر عن مصالح الفقراء والمضطهدين.

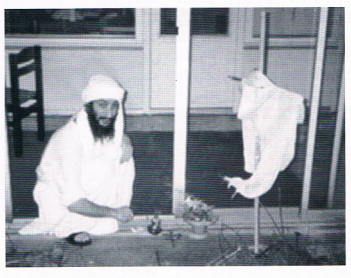

بعد انهيار المنظومة الأشتراكية في اوروبا الشرقية تراءى للكثيرين ان صفحة الماركسية قد انطوت... واليوم، وبعد ان مرّ مايزيد عن عقد من السنين على ذلك الزلزال الكارثي، تبينت كثير من الدعوات... وبات كثير من الذين ناصبوا الإتحاد السوفيتي العداء يندمون على مافات،لكن ملايين من البشر تعود الى ماركس من جديد وتقرأه بعيون فاحصة في ضوء واقعها الحي الملموس، وتتلمس منه سبيلها الى المستقبل الأفضل، وليس التباكي على"الماضي السعيد" وتتلمس منه العون للخروج من مشاكلها الأجتماعية والأقتصادية. إن عراق اليوم، ليس في حاجة الى لطم الخدود على ماض ولّى، وإنما هو في حاجة الى إكتشاف سبيل المستقبل. وفي ظل المساعي التي تبذلها الأحتكارات الأجنبية، متدرعة بعدة العولمة الليبرالية وآلياتها ومؤسساتها للأستحواذ على خيراته؛ فان الشعب العراقي أكثر من أي وقت مضى في حاجة الى إستشارة ماركس من جديد وبعين فاحصة ومدققة، كما قلت في ضوء واقعه الملموس.

هل تجد ثمة علاقة بين الدين المندائي ونزعتك المادية؟

وكيف توفق بين نزعتك الماركسية واهتمامك بالدين المندائي وكتاباتك ومحاضراتك المستمرة عنه؟

,وسؤال اخر : بدأ المسيحيون والمندائيون يهربون من موطنهم العراق بفعل تصاعد حدة الاضطهادات التي شملت القتل والاغتصاب ومطالبتهم بدفع الجزية من قبل عصابات دينية متطرفة. ما رأيك بعملية النزوح هذه، وهل تعتقد انها ستكون مؤقتة؟

لا أحسب أن اىّ عراقي غيور على وطنه وشعبه وتراثه ومستقبله لا يقلق للحال التي يتعرض فيها كثيرمن المسيحيين والصابئة للألوان من التضييق والإضطهاد، بما فيها القتل والإغتصاب والإبتزاز، ما يدفع بالعديد منهم الى البحث عن الأمان في الهجرة الى خارج البلاد. وأنا الذي عانيت، ولا أزال أعاني الغربة منذ مايزيد عن ربع قرن، أدرك بمرارة، ما يعنيه التشرد والهجرة. من المؤسف، حقا ان ابناء العراق الأوائل، أعني بهم الصابئة والمسيحيين، أحفاد بناة الحضارة العراقية القديمة،الذين عاشوا، وعمروا بلاد الرافدين قبل ان يدخلها العرب والمسلمون، يرغمون اليوم على الهجرة عن وطنهم. ان من حق المرء ان يتساءل بأي وجه حق تسمح عصابات تدعي الأسلام، لنفسها ان ترغم أبناء البلاد الأصليين على ترك وطنهم تحت طائلة التهديد بالقتل. ويجري كل هذا في القرن الحادي والعشرين؟ ثم اليست هذه العصابات تخالف بهذا الشرع الذي تدعيه، وهو الذي خاطبهم بقوله "ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"؟ ولماذا تسكت المرجعيات الدينية، الشيعية بالذات عن هذا التجاوز على الشرع، وعلى القوانين، وعلى شرعة حقوق

العصابات اعلى نسبا وأشرف قدرا وأكثر إدراكا ومعرفة من الامامي الطالبيين، الشريف الرضي،و الشريف المرتضى، حين حزنا اشد الحزن على الكاتب الوزير أسحاق ابن هلال الصابئي، وحين رثياه بأجمل المراثي؟

أنا أدعو كل القوى الخيرة في المجتمع على اختلاف مشاربها، لاسيما اليسار الديمقراطي، ان تقف بقوة اكبر في وجه مايتعرض له الصابئة والمسيحيون من إضطهاد، إن كانت تحرص حقا على إشاعة الديمقراطية في البلاد، واطالب الأحزاب السياسية والصحافة ومنابر الأعلام كافة، لاسيما الشيعية ان تجاهر بمعارضتها هذه الممارسات، والتصدي للعصابات التي تمارس التكتيل بالمواطنين الأبرياء وإيقافها عند حدها.

في الجانب المقابل، أقول لأخوتي وأخواتي المسيحيين والصابئة الذين ينشدون الهجرة عن الوطن للخلاص مما يكابدون، ان الهجرة لن تحل المشكلة. فسيتعرض غيرهم للمحنة وان السبيل الوحيد للوقوف في وجه هذا الأجرام هو النضال ضده، ومشاركة من يكافح من اجل الديمقراطية في سعيه. ان هجرتهم قد تضمن سلامتهم، وقد توفر لبعضهم عيشا افضل... لكنها ستولد متاعبها المقابلة، وستولد وضعا يجر غيرهم الى الهجرة حتى وان لم يرغبوا فيها، ولم يتعرضوا الى مايدفعهم اليها.

ما رأيك بالدعوات الجديدة للثقافات العراقية المتعددة الاخرى التي تطالب بازاحة هيمنة مظلة الثقافة العربية قليلا لتجد هذه الثقافات، هي الأخرى، وجه النور الذي حرمت منه لعقود طوال؟

دعني اولا، اشير الى ان لهيمنة الثقافة العربية في العراق عواملها التأريخية الطويلة، اذ تولدت من هيمنة العرب والإسلام على مقدرات البلاد طوال حقب طويلة، ظل فيها الأقوام من غير العرب، ومن غير المسلمين يتعرضون الى التضييق والى الأضطهاد، وفي ظل هذه الهيمنة الطويلة، فرضت اللغة العربية نفسها لا في ميدان الثقافة وحدها، وإنما في التعامل اليومي والحياة الأجتماعية عامة، وقد تمثل العرب المسلمون ثقافات الأقوام الأخرى، التي كانت سائدة في البلاد قبل احتلالهم وكسوها برداء من الأيديولوجية الأسلامية، مضيفين لها ما ابدعوه هم واعادوا فرضها على المجتمع. وبات على المثقف من غير العرب المسلمين ان يساير هم في هذا وإلا فأنه ينتهي الى زاوية النسيان ويتوارى. وهكذا انمحت شيئا فشيئا لا الثقافات الخاصة بأقوام العراق الأولى، ومن بينهم الصابئة المندائيون والكلدانيون والأشوريون وحسب، وإنما انمحت ايضا المعالم القومية الأخرى أساسا، وباتوا يحسبون في عداد العرب. واضحى على علماء الأثار ان ينقبوا عن اداديهم في مكتبة آشور بانيبال وغيرها. وفي كتب المندائيين يشار في مواضع عديدة الى فنونهم الموسيقية التي ما عاد لها اثر اليوم.

ان ازاحة هيمنة الثقافة العربية، ولو قليلا، كما تقول لن تتم بمرسوم، واذا شئت الحق، فأن الثقافة العربية هي الأخرى باتت تعاني سلطان الذهنيات المتخلفة التي تدفع بها الى التحجر، وكذلك ما تحمله العولمة الليبرالية من وافدات... وليس غير الديمقراطية الحقة من علاج. وفي ظني ان الأبداع في جو ديمقراطي بحق، هو وحده ما يفرض التعدد والأزدهار في الثقافة بما في ذلك ثقافة الأقليات... ولنتمثل، بعد هذا بالقول الصيني: "دع المئة زهرة تتفتح""

انصب جهدك خلال السنوات الاخيرة على كتابة تأريخ الحزب الشيوعي العراقي؛ فاصدرت جزءين، وانت تعمل على الجزء الثالث. ما الفرق بين كتابك وكتاب الراحل حنا بطاطو عن تأريخ هذا الحزب؟

عديدون هم الذين سألوني عما يميز كتابي (عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي) عن ما اورده الأستاذ الراحل حنا بطاطو في كتابه (الطبقات الأجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق) الذي صدر عن جامعة برينستن بالأنجليزية عام ١٩٧٨ وترجم الى العربية بعنوان (العراق). واذا كان بعضهم خشي التماثل بين العملين فأن الأستاذ بطاطو ذاته قد عبر لي عن ترحيبه بمشروعي، وابدى استعداده لقراءة المسودات وابداء ملاحظاته. ولكن لسوء حظي ان يرحل قبل ان يتحقق له ما اراد. على انني اذكر تأكيده على اهمية ان يبادر الشيوعيون العراقيون ذاتهم الى كتابة تأريخهم، اهل مكة ادرى بشعابها. ثم ان بطاطو يتحدث عنهم حتى منتصف السبعينيات في ما يتواصل عملي الى عقدين تاليين، جرت فيها أحداث خطيرة، واذا كان هو قد نظر الى الأمر من خارجه فاذا انظر اليه من داخله واتابع حركته الداخلية بما لايتسع للمراقب الخارجي ان يتابعها وستتيسر لقارئ العملين فرصة الجمع بين النظرتين ليحصل منهما على الرؤية الأدق .